القسم الثاني

التقي
الزاهد
الورع

٦-الدين والسيف

بعد هزيمة ابن رشيد ووفاته، وجد ابن سعود متنفساً من الوقت ليفكر، ويدبر بعض أمور مملكته الجديدة. وقد تمكن في ظرف سنوات أربع من السيطرة على مساحة واسعة من الأراضي تبلغ في كبرها مساحة فرنسا، وإن أطلقنا على هذه الأراضي اسم مملكة فهي في الواقع ليست إلا مملكة اسمية فقط، إذ إن نظمها السياسية والقانونية لم تكن قد تطورت بعد تطوراً ملحوظاً، فسلطة ابن سعود في أراضيه الجديدة لم تزل قائمة على ولاء شيوخ القبائل له، إما بدافع الرهبة، أو الرغبة، أو الإعجاب، وكثيراً ما كان هذا الولاء يهتز، أو يتغير، فيسبب الكثير من المنازعات، وعدم الاستقرار، أضف إلى ذلك أن المملكة لم تعلن رسمياً إلا بعد عشرين عاماً في ١٩٣٢م[١].

أما المجتمع الذي حكم فيه ابن سعود، فهو المجتمع البدوي ذو الصفات والسمات البدوية المعروفة، وهو مجتمع لا يعرف حكم القانون في معناه الحديث المعروف اليوم، روابطه بدوية تقليدية، وقانونه قانون قبلي عرفي، سار عليه البدو منذ الأزل، فهم لا يعرفون غيره، ولا يخضعون لسلطة غير سلطته، التي منها تنبع سلطة شيخ القبيلة، راعي وحامي ذلك القانون العرفي، وحتى خضوع البدو ذاك ليس خضوعاً مطلقاً، وإنما خضوع محدود، فالخضوع المطلق لأي

(١) تم إعلان مسمى المملكة العربية السعودية بناءً على الأمر الملكي رقم ٢٧١٦ وتاريخ ١٧ من جمادى الأولى ١٣٥١هـ.

قانون، أو لأي سلطان كائناً من كان أمر لا تعرفه العقلية البدوية أو الطبيعة البدوية، فهي طبيعة حرة، متمردة دائماً، لا تقبل الإذعان، والانقياد، مراسها صعب، ومزاجها صعب كذلك، ومجتمع هذا شأنه يصعب حكمه، أو تأسيس حكم مستقر فيه، والتاريخ يحدثنا عن دول وممالك قامت وزالت سريعاً في مثل هذه المجتمعات الصحراوية، بسبب النزاع والاضطراب، ثم عدم الاستقرار الناتج عن طبيعة تلك المجتمعات التي لم تألف الانقياد، والخضوع لسلطان، حدث هذا في أخريات الدولة السعودية الثانية وكان أحد أسباب انهيارها، وحدث في مشيخة الكويت، وفي عدد من مشيخات الخليج، وحدث أيضاً في مملكة ابن رشيد بعد موته، حينما وقع ذلك النزاع المرير بين أبنائه حول من يحق له خلافته، وكان ذلك النزاع أيضاً أحد العوامل التي أضعفت حكم آل رشيد، ومكنت ابن سعود من القضاء عليه في النهاية، فتاريخ الصحراء الطويل يوضح بجلاء أن عمر حكوماتها قصير، وأنها دائماً إلى زوال سريع.

ولم يكن غريباً، والحال هكذا، أن تتجه عبقرية ابن سعود إلى تأسيس حكم لا يقوم على الولاء الشخصي له، وإنما على أسس أخرى، ثابتة وراسخة الجذور ، وقد رأى بثاقب بصره أن السبيل إلى ذلك هو تهجير البدو من بيئتهم البدوية التي لا تعرف الاستقرار ولا تعرف حكماً للقانون، إلى بيئة زراعية مستقرة تعرف القانون وتحترمه، وتألف الخضوع للسلطة الحاكمة، فكان مشروعه الرائد الرامي لتوطين البدو بإسكانهم في هجر بالقرب من آبار المياه، أو في الواحات، ومحاولة إعادة صياغة العقلية البدوية من جديد حتى تكون أكثر إذعاناً وقبولاً للسلطان والقانون، وذلك عن طريق تعليمها مبادئ الدين الصحيح من جديد، على منهج السلف الصالح الذي دعا إليه، وجاهد من أجله الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وكذلك عن طريق تعليمها أساليب

الزراعة وحياة الاستقرار، وإذا ما تم ذلك، فستكون العقلية البدوية أقل قبلية في ولائها، وأكثر ارتباطاً بخالقها، سبحانه وتعالى وأقوى ولاءً له، ثم من بعد ذلك لأميرها وحاكمها، وبمعنى آخر تسودها روح الإخاء في الله، وربما في الوطن، والمواطنة.

مشروع توطين البدو بهذه الصفة، ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، هو وليد فكر ابن سعود وحده، ومن بنات أفكاره، لم يقرأ فكرته في كتاب، ولم يقتبسها من تجربة أخرى، فهي فكرة أصيلة، تتجلى في أصالتها عبقريته الفذة التي سخرها لوضع أسس ثابتة راسخة لدولته الوليدة. كما أن تلك الأصالة في فكر ابن سعود توضح بجلاء علوه وشموخه فوق تلك الظروف القاسية التي أحاطت به.

ولكن المشاكل التي ما فتئت تواجهه كل حين، ومن كل جانب، كانت تقف عقبة في سبيل تحقيق حلمه ذاك، فآل رشيد ما زالوا يشكلون خطراً ماثلاً عليه، من عاصمتهم حائل ، وإن ضعف أمرهم فإن القضاء عليهم بصفة نهائية يحتاج لجهد ووقت وإمكانات، ثم إن قوات الفريق صدقي التركية ما زالت باقية في قلب نجد، والقضاء عليها ليس بالأمر الصعب، فبعد أن أمر بقطع خطوط إمداداتها ذبلت تدريجياً، ثم زالت كنبتة زرعت في أرض حارة جافة، فقد مات من مات منهم، وفرَّ من فر، واختفى في النهاية آخر جيش أرسله السلطان العثماني إلى صحارى نجد، ومن بعد ذلك لم يرسل السلطان جيشاً آخر إلى نجد.

لم تنته مشاكل ابن سعود بالقضاء على أعدائه الخارجيين- الأتراك، وآل رشيد- فقد بدأت بعض المشاكل الداخلية تحدق به من كل جانب، وتمثلت

تلك المشكلات في ثورات وتمرد بعض شيوخ القبائل، وخروج البدو عليه مرات ومرات. فكثيراً ما صار أصدقاؤه من مشايخ الأمس أعداءه اليوم، وكثيراً ما انقلب عليه بعض البدو الذين كانوا بالأمس يقاتلون إلى جانبه، خاصة عند توقف الحروب والمعارك لفترات من الزمن، ولعل غيرة المشايخ، وملل البدو كانا وراء تلك الاضطرابات، فقد بدأ بعض المشايخ لا يقومون بالواجبات المفروضة عليهم من مده بالرجال، أو دفع ما عليهم من أموال، كما إن بعضهم بدأ يدفع ما عليه لابن رشيد، وليس لابن سعود، وبدأ آخرون يسدون أبواب مدنهم وبلدانهم في وجه رسله، أو يثورون على ولاته،أو يغيرون ويسلبون القبائل المواليه له.

وكان ابن سعود يقوم بالتصدي لكل هذه المشكلات ومعالجتها، وكانت سياسته التي جذبت القبائل وشيوخها إليه هي سياسة العفو عند المقدرة، فكان إذا ظفر بأحد الشيوخ الثائرين عليه، يعفو عنه، بل كان يعيدهم إلى مشيخة وقيادة قبائلهم مرة ثانية،ومثال ذلك عفوه مرتين عن حاكم مدينة بريدة، الذي ثار مرتين، وهزم مرتين، وأعيد إلى منصبه مرتين أيضاً. ولكنه عندما ثار للمرة الثالثة، وظفر به ابن سعود، فلم يسجنه، أو يعدمه، وإنما نفاه إلى العراق، هذه الحملات التأديبية التي كان ابن سعود يقوم بها هنا وهناك- أحياناً في الأطراف الشمالية الغربية من أراضيه، وأحياناً أخرى على حدود إقليم الأحساء، وثالثة في طرف آخر، استغرقت عدة سنوات، من عام ١٩٠٧م- ١٩٠٩م.

قلنا: إن سياسته المتسامحة، والحازمة في الوقت نفسه، والتي إن دلت على شيء، فإنما تدل على بعد نظره وحكمته، هي التي حببته إلى رجال

القبائل ومشايخها. وجعلتهم يدينون له بالولاء، فكثيراً ما أصبح أعداء الأمس هم أصدقاؤه اليوم، ثاروا في يوم من الأيام، وهزموا وعوملوا معاملة سمحة كريمة؛ فانضموا إلى صفوفه، وناصروه، وأصبحوا من رعاياه الخلص.

فقد شهدت المنطقة الجنوبية ثورة ماضية، قام بها بعض شيوخ قبائلها، ولكن ابن سعود قضى عليها.. وتفصيل ذلك، أن ابن سعود تغلب عليهم في المرحلة الأولى من ثورتهم.. فلم يستسلموا، وإنما انسحبوا مع القبائل الموالية لهم إلى إحدى البلدات القريبة، يحتمون بأسوارها المنيعة، فحاصرهم ابن سعود فيها، ولكن البلدة امتنعت عليه لحصانة أسوارها، فاستعمل الحيلة لهزيمتهم، واستسلامهم، وذلك عندما أشاع في البلدة أنه وضع ألغاماً تحت حصنها الذي التجأ إليه زعماء الثورة.. وأنه سيقوم بتفجير الحصن، ومن بداخله، إذا لم يستسلم أولئك الزعماء، وانطلت الحيلة عليهم، فاستسلموا، وانتهى التمرد، وكالعادة لم ينتقم الأمير من قادة التمرد، وإنما عفا عنهم، وأخذهم إلى الرياض ضيوفاً عليه.

هذه الحالة المضطربة في المناطق الجنوبية هي التي استغلها بعض أعدائه في تمردهم عليه، وذلك حينما استطاعوا أن يكسبوا بعض رجال القبائل هناك إلى جانبهم، وأن يغروهم بالثورة عليه، رامين من وراء ذلك إلى إقامة حكومة مناوئة له في تلك الأصقاع الجنوبية، ولخطورة ذلك التمرد، سار إليهم ابن سعود بنفسه، وتمكن دونما كبير عناء من القضاء على حركتهم تلك، وقبض على زعمائها.

ساد الصحراء، وساد قبائلها هدوء وسلام بعد نجاحات ابن سعود هذه، وسكنت الاضطرابات، والحروب القبلية المستمرة، ووجد ابن سعود متسعاً من

الوقت تفرغ فيه لشؤونه الخاصه، العائلية وغيرها، فقام مثلاً بترميم وإصلاح القصور التي خربها ابن رشيد أثناء حكمه للرياض، وبنى قصوراً أخرى، لتسع عائلته الممتدة، وانصرف في بعض الأحيان لممارسة رياضة الصيد، وهكذا دواليك.

وتطلع إلى إصلاح أمور دولته الاقتصادية .. ولم يكن ذلك بالأمر المحبب إلى نفسه، فقد كانت أحوال الدولة الاقتصادية مهتزة، وغير ثابتة، فموارده كانت عبارة عن الضرائب، ورسوم العبور المفروضة على التجار، الذين كانوا لا يملكون إلا القليل. ولم يكن للدولة صادرات غير الإبل، والخيول، وفي مقابل واردات شملت الأقمشة القطنية، الأرز، والبن، والسلاح، والذخيرة ، وكان معظم هذا التبادل التجاري يتم عن طريق المقايضة، إذ إن كمية النقود وتداولها كان محدوداً جداً.

والعملة المتداولة- على قلتها- كان ريالات «ماريا تريزا»، المعروفة[1]، وهي عملة نمساوية أصلاً، ولكنها لسبب ما أصبحت مرغوبة التداول في بلاد الشرق، وكثيراً ما كان ابن سعود يتذكر فيما بعد- عندما تقدمت به السن، وأصبح مليونيراً بفضل دخل البترول- تلك الأيام الخوالي، التي كان يحمل فيها خزانة الدولة بكل ريالاتها الفضية في عدل خرجه.

كان ابن سعود رجلاً متديناً بحكم نشأته في أحضان الدعوة السلفية، وبحكم تعليمه، وكان الدين يجري مجرى الدم في عروقه، كما كان تمسكه

(١) اشتهر هذا الريال عند سكان الجزيرة العربية باسم (الريال الفرانسي)، ويعد من أشهر العملات المتداولة، وقد سكت من معدن الفضة، وتعادل في وزنها الأوقية الواحدة. وأقدم تاريخ لسكها هو عام ١٧٨٠م. كما قد عرفت عند البعض باسم مرادف هو: أبو طَاقَه -أي نافذة-.

بمبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية تمسكاً قوياً، وكان كثيراً ما يدعو الناس من حوله للتمسك بها، والعيش على ضوء تعاليمها ومبادئها.. وما إن استتب له الأمر نوعاً ما، ونعمت أراضيه بالهدوء، حتى هب محاولاً تطبيق مشروعه العظيم- مشروع توطين البدو، فبدأ في عام ١٩١٢م، إنشاء هجر الإخوان وتوطينهم فيها، وقد رأى البعض أن مشروعه هذا هو أحد أعظم إنجازاته، إذ إنه أعطى دولته الوليدة صفة الاستمرارية، والديمومة.

تدين ابن سعود وتمسكه، وحماسه لمبادئ الدعوة السلفية، جعلاه يعيش على وئام وانسجام مع جماعة العلماء، الذين كانوا هم القيمين على الدعوة، وعلى وجدان الأمة،ولم يحدث أن وقع تعارض، أو تصادم بينه وبينهم، وكان يهتم اهتماماً شديداً بآرائهم، وتوجيهاتهم، ولم يكن يتجاهلها كما ادعى البعض، أولا يكفي دحضاً لمثل هذه الافتراءات أنه هو الذي بث في نفوس جنده الروح الدينية، الجهادية، وأنه هو الذي هجَّر البدو، وأتى بالعلماء، والوعاظ ليعلموهم الدين الصحيح على نهج السلف الصالح، وكانت النتيجة أن تضافرت جهوده، وجهودهم فجعلوا من سكان تلك الهجر إخوةً متحابين في الله، بعد أن كانوا بدواً متنافرين، يغزو بعضهم بعضاً، ويضرب بعضهم رقاب بعض.

وبالإضافة إلى كل ذلك، فقد كان للهجر ميزة وفائدة أخرى وهي أنها أمدت ابن سعود بجنود محاربين، ولاؤهم أولاً لله سبحانه وتعالى ثم من بعد ذلك له، لا سيطرة للشيوخ عليهم، ولا على ولائهم، وتلك كانت هي إحدى إنجازات ابن سعود، التي ترتبت عليها نتائج بعيدة المدى.

أنشئت أولى الهجر في الأرطاوية عام ١٩١٣م[١]-بين الكويت وبريدة- وأول من جاءها العلماء ينشرون مبادئ الدين الصحيح بين سكانها الجدد، في حين كان ابن سعود يقوم بجهود جبارة لجمع المال لبناء المساجد، وحفر الآبار، ولمد أهل الهجر بالبذور، ومتطلبات الزراعة الأخرى، وكانت النتيجة أن نمت الأرطاوية، ثم صارت بعد سنوات قلائل، تضارع الرياض حجماً وسكاناً -وتلا إنشاء الأرطاوية، إنشاء ستين هجرة أخرى، عمر معظمها وازدهر، حتى قيل إنه كان باستطاعة ابن سعود الحصول على ستين ألف مقاتل من تلك الهجر إذا ما دعا داعي الحرب- كلهم مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل خالقهم، ثم من بعد ذلك من أجل أميرهم ابن سعود.

وهكذا أصبح الإخوان في تلك الهجر قوة حربية احتياطية، تأتمر بأمره، وهي دائماً رهن إشارته متى ما احتاج إليها، وهي فوق هذا كله قوة ذات مبدأ وعقيدة، تختلف عن قواته البدوية التي اعتمد عليها في حروبه الأولى، وهي أيضاً قوة لم يكن لها مثيل في الجزيرة العربية، ولعل أهمية الإخوان الأخرى، أنهم كانوا فئة جديدة من المواطنين، لم تعرفها الجزيرة من قبل، فهم أفراد طبقة جديدة، هي بين طبقة تجار المدن، وطبقة البدو، وهي أيضاً طبقة ألفت حياة الاستقرار، وألفت الإذعان، والانصياع للقانون، ومن ثم فهي بمنزلة الأساس الصالح الذي ينبغي أن تقوم عليه دعائم كل دولة راسخة ثابتة، فكانوا هم ذلك الأساس الذي أخذت الدولة السعودية تنمو وتزدهر بفضله، ولم يكن نموها ذلك في عزلة عما يجري حولها من أحداث ونشاط، فسرعان

(١) الصحيح أن أول هجرة أنشئت في الأرطاوية كانت في سنة ١٩١٢م/١٣٣٠هـ.

ما انفتحت هذه الدولة الوليدة على العالم الخارجي، وبدأت تقيم لها علاقات مع بعض دوله. وذلك أن ابن سعود بعد أن قضى على الاضطرابات والفتن التي أشرنا إليها، قرر السفر إلى الكويت لزيارة الشيخ مبارك، وأثناء وجوده هناك قابل شاباً إنجليزياً يدعى وليام شكسبير.

٧- شكسبير

كان لقاء ابن سعود بشكسبير الذي خلف نوكس كوكيل سياسي في الكويتش، في الأسبوع الأول من مارس ١٩١٠م على دعوة عشاء مقدمة من شكسبير له، أحضر ابن سعود معه إلى ذلك العشاء أخويه سعداً وعبد الله، والابن الأكبر تركياً، الذي كان عمره آنذاك تسع سنوات، ولم يترك لنا شكسبير وصفاً لذلك العشاء، أو لما دار فيه إلا قوله: إن ضيوفه «كانوا في غاية اللطافة» وهو قول جد مقتضب لم يخبرنا عمّا تم في ذلك اللقاء من حديث وعن رأي ابن سعود في شكسبير، أو حتى ماذا قدم شكسبير لضيوفه من أصناف الطعام- هل قدم لهم خروفاً كاملاً مطبوخاً على كوم من الأرز، وهل جلس معهم على الأرض وأكل معهم بيده اليمنى، أم أنه أعد لهم طعاماً على النمط الإنجليزي، فأجلس ابن سعود وصحبه على طاولة طعام تزينها أطقم من السكاكين والملاعق والشوك؟ - ولأن أحداً لم يسجل لنا ما تم ودار، وقيل في ذلك العشاء؛ فقد بقى حتى الآن طي النسيان.

يبدو شكسبير في تاريخ الجزيرة العربية على عهد ابن سعود شخصية

(١) الصحيح أن اسمه: وليم شكسبير، ولد عام ١٨٨٠م في الهند، ودرس في جامعة ساندر هرست العسكرية، ثم أصبح ضابطاً. تقلد عدة مناصب، وزار عدة بلدان عربية وغير عربية، كان آخر منصب تقلده هو المعتمد السياسي البريطاني في الكويت، عام ١٩٠٩م/١٣٢٦هـ، تعرف على الملك عبدالعزيز في الكويت عام ١٩١٠م، وزار الرياض والتقط لها صوراً وكذلك للملك عبدالعزيز أيضاً، ومات مقتولاً في معركة جراب عام ١٩١٥م/١٣٣٣هـ.

غامضة، اسمه بالكامل هو: هنري ارفن شكسبير، كان نقيباً في الجيش الهندي، مات صغيراً [1]، ومن ثم لم تحظ ذكرى مزاياه بما حظيت به ذكرى مزايا بعض معاصريه، ولكنه أدى دوراً مهماً في تاريخ تلك الحقبة، ولو أنه عاش مدة أطول فلربما لمع اسمه في مجال الحروب، كما لمع اسم أحد أبناء جيله في الجانب الغربي من الجزيرة العربية، ذلك هو ت.هـ. لورانس المعروف بلورانس العرب.

كان شكسبير في مثل سن ابن سعود، فكلاهما كان قد تجاوز الثلاثين من عمره عندما التقيا أول مرة، وقد تحدث عنه زملاؤه بعد موته كرجل ذي حيوية ومرح، كان خبيراً بالزوارق، وقد جاب مياه الخليج العربي في زورق بخاري صغير تابع للوكالة البريطانية، وقد حكى كوكس، أنه في إحدى الليالي العاصفة، كان يرقب شكسبير وهو في زورق صغير من فوق ظهر سفينة بريطانية، وظن كوكس أن شكسبير في خطر،وأنه قد يحتاج إلى مساعدة، وعندما سألوه إن كان في حاجة إلى عون اكتشفوا أنه هو الذي يعرض مساعدته عليهم، وقد اشتهر شكسبير أيضاً أنه من راكبي الجمال المهرة، الأمر الذي مكنه من القيام برحلات طويلة في الصحراء، وكان محباً للمغامرة، مليئاً بحيوية الشباب، ولعل هذه المزايا والطباع هي التي قربته من نفس ابن سعود الذي كان يشاركه بعضها.

عند دعوته ابن سعود للعشاء، كان شكسبير عائداً لتوه من رحلة طويلة في الصحراء استغرقت شهراً كاملاً، ولم تكن رحلات سلفه نوكس في الصحراء طموحة وطويلة كرحلاته، فقد أمضى نوكس سنواته الخمسة في الكويت مشغولاً ببناء علاقات قوية مع الشيخ مبارك، كان ختامها إهداءه للشيخ قبل مغادرته الكويت، صورة زيتية للملك ادوارد السابع، ومدفعين، وعدداً من

الأسلحة النارية، وقد احتفظ الشيخ مبارك ببعض هذه الهدايا في مقره، وبعضها الآخر في يخته الخاص، ولعل تفاني نوكس في عمله في الكويت، وجهوده الرائدة، التي جعلت من الكويت منطقة نفوذ بريطاني، هي التي مكنت شكسبير من ترك مقره في الكويت لفترات طويلة كان يقوم أثناءها برحلاته الصحراوية تلك.

فقد قطع شكسبير في إحدى رحلاته- تصحبه مجموعة مكونة من اثني عشر بدوياً- مسافة أربعمائة وخمسين ميلاً في عمق الصحراء، فكان بذلك أول أوربي يصل إلى هذه المسافة البعيدة في الصحراء، بعد المقدم لويس بلى الذي قام برحلته إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، وقد تعرض شكسبير وصحبه البدو إلى غارة من بعض البدو الذين أرادو سلب جمالهم، وقد سجل تفاصيل هذه الغارة في مذكراته، فحكى كيف أن مجموعة من البدو -ممتطية ظهور الخيل- قد هاجمت معسكرهم، وتبادلت إطلاق النار مع رجاله بطريقة عشوائية، وكيف أن المهاجمين اتجهوا إلى جمالهم ليأخذوها، وهم يطلقون صيحات الحرب، وكيف أن بدوه تعرفوا على المجموعة المهاجمة من صيحات حربهم تلك، فعرفوا أنهم من قبيلة موالية للشيخ مبارك، ولما عرفهم البدو أنهم من جماعة الشيخ مبارك، اكتشف المهاجمون خطأهم، وانتهت الغزوة، وعاد الجميع أصدقاء، يحتسون القوة في خيمة شكسبير، ويضحكون من خطئهم.. وقد أضاف شكسبير في مذكراته كيف أنهم شرحوا له فنون وأساليب الغزو، وحدثوه عن قوة احتمال البدوي الذي يستطيع أن يبقى بلا ماء في أيام الشتاء مدة ثلاثة أيام، ويومين بلا طعام - وأن خيل البدو تستطيع أن تحتمل العطش مدة ثلاثين ساعة، وقد حكى شكسبير هذه الواقعة لابن سعود، الذي كما -قال شكسبير لكوكس فيما بعد- «أبدى دهشته، لطول

الرحلة، والمسافة الشاسعة التي قطعتها فيها، وأبدى دهشة أكثر لاستمتاعي بهذه الرحلة».

كانت هذه الواقعة خير ما قدم وعرف ابن سعود بشكسبير، وهي وغيرها التي ربما قربته من نفس عبدالعزيز، فقد جاب رحالة ومكتشفو العهد الفكتوري- ماعدا المقدم بلي- أنحاء الجزيرة العربية، متنكرين في زي المسلمين، أما رحالة القرن العشرين- والذين كان شكسبير من أوائلهم- فقد أدركوا أن الواحد منهم لو عاش في وسط البدو كما يعيشون، وإذا ما ألفهم، وتعاطف مع آمالهم وتطلعاتهم، فإن البدو سيقبلونه كصديق لهم، وسيقبلون عيشه في وسطهم، على الرغم من اختلافهم معه في الدين. ولقد عايش ابن سعود فيما بعد، وتعامل مع أوربيين وأمريكيين، لم يتفهموه، ولم يكن لهم حتى الاستعداد لتفهم وتقبل العادات والمعتقدات العربية. ولكن كان من حسن الطالع أن أول أوربي قابله ابن سعود كان هو شكسبير، ذلك الضابط الشاب ذو العقلية المرنة، المتفهمة للبدو وطباعهم، والذي تحلى بحماس دافق، وقوة جسدية جعلتاه يهوى حياة الصحراء، ويتحمل مشاقها، ويعايش أهلها في تسامح وطيب خاطر.

لم يلتق الرجلان- ابن سعود وشكسبير- إلا في الربيع القادم، وكان لقاؤهما في الصحراء عندما كان شكسبير في إحدى رحلاته الصحراوية تلك، وابن سعود وجيشه معسكرين في الصحراء. ولا ندري إن كان ذلك اللقاء مخططاً له، أم كان عن طريق المصادفة، إذ إن شكسبير لم يترك لنا شيئاً في مذكراته عن يوم ٦ مارس ١٩١١م- يوم اللقاء- غير قوله:« أقمت في معسكر ابن سعود، كان الجو ممطراً»- ولكنه بعث رسالة بعد عودته إلى الكويت إلى كوكس، فيها أول لمحةٍ عن ابن سعود، كما رآه وصوره الأوربيون.

فقد كتب شكسبير لكوكس أن «ابن سعود، ترك انطباعاً بأنه رجل ذو طبيعة بسيطة، مريحة، سهلة، وكريمة، فقد عاملني بكرم زائد، وبطريقة فيها الكثير من الود الصادق، ولم يبد منه، أو من إخوته أي روح تنم عن تعصب وتزمت، قد يتوقعه البعض من العائلة السعودية الحاكمة، وقد عاملني مستشاروه، وقادة جيشه، وعاملوا رجالي معاملة وديةً مخلصةً،وإنني لمقتنع تماماً بصحة انطباعي هذا عنه، ذلك أنني كنت كلما ناقشت أموراً فكرية أو دينية، لا تقرها الدعوة السلفية، لم أجد إلا ردوداً هادئة، ذكيةً ومعقولة، لا أثر فيها لأي تعصب أو تزمت، وعادةً ما كانوا يتحدثون إليَّ «كأخ» - وحتى لو كنت فعلاً أخاً حقيقياً لم أكن لأجد غير هذه المعاملة التي عاملوني بها، وكأنني فرد من أفراد العائلة».

لم يكن ابن سعود موارباً، أو منافقاً في صداقته لشكسبير ذلك النصراني الأجنبي، والذي ربما أثار وجوده وهيئته وزيه الحربي البريطاني، بعض مشاعرعدم الرضى في نفوس رجال ابن سعود المتدينين المنحازين تماماً للدعوة السلفية، ولكن عبدالعزيز تغلب على مشاعر أنصاره تلك بسبب حاجته الدبلوماسية لصداقة البريطانيين، ولكنه لم يكن ذاك الرجل الذي يظهر مالا يبطن، فقد كان صادقاً في شعوره الودي نحو شكسبير، فالنفاق والازدواجية في المعاملة ليست من طبعه، ولا يستطيع المرء إلا أن يستنتج أن هناك شيئاً ما في سلوك شكسبير حببه إلى نفس ابن سعود، ونفوس من حوله.

تعرض ابن سعود لبعض المسائل السياسية في لقائه ذاك مع شكسبير، فأخبره- مثلاً- أنه أرسل رسولاً سرياً لمقابلة كوكس في بوشهر، وأن أحداً- غير والده الإمام- لا يعلم بذلك- وإن هدفه هو أن يقبل البريطانيون طلبه الذي تقدم به إلى كوكس قبل ست سنوات- والذي أوضح فيه أنه قادر على

طرد الأتراك من الأحساء، إذا ما تعهد له البريطانيون بحمايته ضد أي هجوم بحري قد يشنه الأتراك عليه، وأنه في مقابل ذلك مستعد لاستقبال وكلاء سياسيين بريطانيين في بلاده، هذا هو مضمون الرسالة، كان شكسبير على علم تام برفض وزارة الخارجية البريطانية لهذا الطلب؛ ولذا لم يكن منه إلا أنه أكد لابن سعود أنه لم يأت لمقابلته لمناقشة أمور سياسية، وإنما غرضه هو الاستمتاع برحلته الصحراوية، ومقابلته في بيئته الصحراوية الطبيعية، وليشاهد كيف يعيش زعيم عربي في الصحراء.. ثم أكد شكسبير لابن سعود أنه على الرغم من أنه ليس مفوضاً لمناقشة أي مسائل سياسية، إلا أنه لمتأكد من أن الحكومة البريطانية لن تسانده ضد الدولة العثمانية-لأنها- أي الحكومة- حريصة على إبقاء مصالحها محصورة في المنطقة الساحلية فقط، كما أنها على علاقة ودية مع الحكومة العثمانية، وأنها لن تقوم بأي عمل قد يُظن أنه من باب التآمر عليها.

لم يقتنع ابن سعود بأن شكسبير مجرد مسافر، يتجول في الصحراء- فاستمر يحادثه في شتى الأمور، السياسية وغيرها، فروى له مثلاً تاريخ آل سعود الماضي محاولاً في ذلك إقناع شكسبير بأنهم الورثاء الحقيقيون للحكم في منطقة الصحراء الوسطى- ومضى ليخطر شكسبير بأن كل أمراء الجزيرة العربية على صلة ببعضهم، وأنهم يضعون الخطط لمهاجمة الأتراك في وقت واحد، وإخراجهم نهائياً من كل البلاد.

كان اقتراح ابن سعود بخصوص الأحساء أكثر معقولية من اقتراحه الأول الذي تقدم به إلى كوكس قبل ست سنوات، والخاص بمنحه الحماية البريطانية، فقد قال في معرض حديثه عن اقتراحه، إن آل سعود يعارضون

بشدة احتلال الأتراك للأحساء، ولكن مهاجمة الأحساء تصبح غير ذات جدوى، إذا تبعها إرسال قوات تركية عن طريق البحر إليها. وأنه يجدر ببريطانيا التي حافظت دوماً على الهدوء والسلام في الخليج العربي أن لا تسمح بمرور مثل هذه القوات التركية عبر الخليج. وأنه إذا ما تمكن من احتلال الأحساء فإنه سيصبح حاكماً لجزء من الساحل الخليجي، وكل ما يتمناه هو أن يعامله البريطانيون ساعتئذ معاملة حكام الخليج الآخرين: الشيخ مبارك، وشيوخ البحرين، وقطر، وشيوخ الساحل المتصالح، وسلطان مسقط، والذين لولا وجود الأسطول البريطاني في مياه الخليج، لاكتسحهم الأتراك والفرس، واختتم ابن سعود حديثه قائلاً: إنه إنما يلتمس من البريطانيين إجابة طلبه هذا، لأنهم هم دائماً سفراء السلم والعدل، ولأنهم معروفون بصدقهم، ووفائهم للعرب.

كان اقتراح ابن سعود هذا يروق لشكسبير، ولكنه كان يعرف جيداً موقف حكومته؛ ولذا لم يفعل أكثر من أن يعده بإرسال اقتراحه إلى رؤسائه، محذراً إياه بأنه قد لايجد استجابة لديهم.. عاد شكسبير بعد هذا اللقاء إلى الكويت ليخط رسالة إلى كوكس: عرض فيها اقتراح ابن سعود، واختتمها موضحاً فيها رأيه والذي كان ينم عن صغر سنه، وأنه ما زال في بداية الطريق الإداري، قال شكسبير: «إنني إذ أتجاسر وأبدي رأياً، أقول إنه بتمكن ابن سعود من السيطرة على الأحساء، مع بقائه على علاقة ودية معنا، فإن موقفنا سيصير قوياً إلى حد بعيد».

أثارت رسالة شكسبير هذه اهتماماً في دهاليز الحكومة البريطانية في لندن، وحظيت بعدد من التعليقات الرسمية عليها، ولكنها لم تلق قبولاً في

النهاية، فقد وصلت الرسالة إلى كوكس في وقت كان مشغولاً فيه بالإعداد للقيام برحلة رسمية، فلم يزد في تعليقه عليها غير قوله إن رسول ابن سعود قد وصل فعلاً إلى بوشهر. وأنه لم يُعط رداً نهائياً، لأنه لم يحضر معه خطاب تفويض من عبدالعزيز، والواقع أنه كان لكوكس رأي معروف في طلب ابن سعود، وهو أنه يفضل صلات ودية، وتعاملاً ودياً معه، وأن كوكس يفضل حكم ابن سعود في الأحساء على حكم الأتراك، ولكنه -وعلى الرغم من كل ذلك- لم يكن مقتنعاً بإمضاء اتفاق محدد معه، لأنه لم يكن متأكداً إن كان ابن سعود سيكون نداً للأتراك على المدى البعيد.

كان كوكس محقاً في تقويمه لقوة ابن سعود مقارنةً مع قوى الأتراك، التي كانت في تزايد مستمر، بل إنها كانت تهدد بابتلاع أواسط الجزيرة وغربها، بسبب خطي السكة الحديد اللذين بدأ الأتراك في إنشائهما، أولهما الخط الحديدي الذاهب إلى بغداد، الذي قد ينتهي في ميناء الكويت، والثاني خط سكة حديد الحجاز (والذي نسفه لورانس أثناء الحرب العالمية الأولى) المار عبر فلسطين إلى الحجاز، فالمدينة المنورة- وربما كان التفكير جارياً في إيصاله إلى مكة المكرمة، وكلا الخطين يشكلان خطراً على دولة ابن سعود الوليدة، فخط بغداد يهددها من الناحية الشمالية، في حين أن خط الحجاز يشكل خطراً عليها من النواحي الغربية، وقد نبه كوكس في إحدى رسائله إلى كلا الخطرين، وأضاف أنه مالم يحدث ما يحول الأنظار والجهود عن إنشاء هذين الخطين، فإن خطر الهيمنة التركية على أواسط الجزيرة العربية سيظل ماثلاً، وقد حدث ذلك التحول عن إنشاء الخطين يوم أن اندلعت الحرب العالمية الأولى.

كان رأي مكتب حكومة الهند في اقتراح ابن سعود أنه اقتراح مغرٍ، وأنه يستحق الاعتبار، خاصةً إذا ما بدأ الأتراك يسببون بعض المتاعب للحكومة

البريطانية في منطقة الخليج، ويظهرون التشدد في بعض مواقفهم، كما فعلوا في السابق، وإذا ما حدث ذلك، فقد اقترح وكيل حكومة الهند في إحدى مذكراته، أنه يتعين على الحكومة البريطانية أن تبقي جميع الخيارات المتاحة مفتوحة أمامها، بما في ذلك الطلب المقدم من ابن سعود لها، إن هي أرادت أن تحد من مخاطر أي نشاط تركي في الخليج العربي.

وعلى الرغم من ذلك لم يتحمس بعض أعضاء حكومة الهند لطلب ابن سعود، ومن أولئك مستشار مكتب حكومة الهند السير وليام لي وارنر الذي أبدى عدم تحمسه لما ورد في رسالة شكسبير حين قال:

« أرى أن نكون حذرين، فلا ننجر إلى التورط في أمور الجزيرة العربية الداخلية. ليس في تلك المحادثة (محادثة شكسبير وابن سعود) إشارة إلى الخط الحديدي الذاهب إلى مكة، والذي سيزيد من قوة الأتراك، وإذا ما أخرج الأتراك من أوروبا، فإنهم سيكونون أكثر خطورة في آسيا. ابن سعود المدفوع بعدائه للأتراك يتحدث حديثاً ودياً، ويقول: إنه سيرحب بوكلاء سياسيين بريطانيين، ولكن إذا أزيح عنه الضغط التركي، فسيتطلع إلى اكتساح مسقط، وتوسيع حكمه ليصل إلى البحر، وعلى الرغم من أن ألمانيا قد تكون وراء تركيا، فإني أتمنى - في الظروف الحالية السائدة- أن لا ننساق وراء الاهتمام أو التدخل- لا من عدن، أو مسقط، أو من الكويت- في أمور أواسط الجزيرة العربية».

وقد برهنت الأحداث في نهاية المطاف، أن شكسبير، واندفاع الشباب، كان على صواب، وأن السير وارنر، وتحفظاته، كان على خطأ، فالخط الحديدي لم يصل إلى مكة، ولم يشكل خطورةً على أواسط الجزيرة، أما الأتراك، فإنهم عندما أخرجوا من أوربا، أخرجوا من آسيا أيضاً، ولم يكتسح

ابن سعود مسقط كما تنبأ وارنر في تقريره، ولعل اللورد كيرزون كان هو الرجل الوحيد آنذاك الذي ربما مزق هذا التقرير المليء بالادعاءات والافتراضات غير المبررة، أما وزارة الخارجية البريطانية فقد اقترحت على حكومة الهند أن تبدي مبرراتها المقنعة لأي تغيير قد تقترحه في السياسة البريطانية تجاه الجزيرة العربية، ولكن في غياب كيرزون- والذي كان قد غادر الهند- لم تحاول حكومة الهند إعطاء تلك المبررات.

واصل شكسبير رحلاته في الصحراء، لعله يجد فيها العزاء بعد أن خاب أمله عندما أصرت حكومته على رفض طلب ابن سعود، ففي ١٩١٤م غادرالكويت في أطول رحلة له، وأكثرها مجازفةً فقد ظل مدة ثلاثة أشهر جائلاً في أنحاء الجزيرة وأصقاعها، حتى وصل النهاية الشمالية لساحل البحر الأحمر قرب ميناء العقبة، ثم حول خط سيره من هناك، ليزور مدينة الرياض، وعندما وصلها ضرب خيمته خارج أسوارها، على بعد ميل من المدينة ذاتها، ومن هناك كان يأتي للرياض لزيارة ابن سعود فكان بذلك أول أوربي بعد المقدم (الكولونيل) لويس بلي يزور ويرى الرياض[1]- وقد حكى كيف أنه شاهد ابن سعود وهو يجمع رجاله وإبله استعداداً للقيام بحملة عسكرية إلى جهة ما، وكيف أنه شاهد إحدى ثورات غضب «هذا الرجل العظيم»، وقال: إنها كانت تجربة تبعث الرعب في النفس.

في هذه الرحلة، عبر شكسبير الدروب والطرق التي سيعبرها لورانس

(١) الصحيح أن شكسبير هو السادس من الرحالة الأوربيين الذين زاروا الرياض، ولعل أولهم: جورج فورستر سادلير ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، ووليم جيفورد بالجريف ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، ولويس بلي ١٢٨١هـ/١٨٦٥م، وباركلي رونكيير ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، واخيراً جيرارد ليتشمان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.

بعد ثلاثة أعوام وهو يقود الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى، وقد قابل لورانس فيما بعد بعض البدو الذين كانوا مع شكسبير أثناء رحلته تلك، وسمع منهم «حكايات عن عظمته، وعن العزلة الغريبة التي كان يضربها حول نفسه ليلاً ونهاراً» وقد عاش لورانس فيما بعد في عزلة تامة عن البدو الذين كانوا معه. ولعل حياة العزلة هذه كانت أمراً غريباً وملاحظاً إذا ما قورنت بحياة البدو القائمة على الجماعية، والمشاركة في كل شيء- ولعل وصف لورانس بالعظمة، لم يكن وصفاً لمظهره الجسماني الخارجي، أو للطريقة التي كان يسافر بها، فقد كان في سفره قليل المتاع، قليل الصحاب، كما كان دائماً مفلساً خال الوفاض، ليس معه إلا اليسير والقليل من المال- وكل تلك أمور لا تترك انطباعاً بالعظمة في أذهان البدو، ومن ثم فوصفه بالعظمة إنما وصف لعظمة شخصيته ليس إلا.

لم يذكر شكسبير في مفكرته أن ابن سعود تحدث معه في بعض الأمور السياسية، وحتى وإن كان عبدالعزيز قد فعل ذلك، فإن شكسبير كان دائماً ما يسكت عن تسجيل مثل هذه الأحاديث، حذراً وخوفاً منه أن تقع المفكرة الحاوية لتلك الأحاديث في أيدٍ أخرى إن مات أو فقدت المذكرة، فتسبب محتوياتها حرجاً لكل من ورد ذكره فيها، كان ذلك ابن سعود أو الحكومة البريطانية أو كليهما، ومن المفترض أن الرجلين تحدثا مرة ثانية عن الأحساء، وأن ما قاله شكسبير وأكده، أقنع ابن سعود بأن بريطانيا لن تمنحه تلك الحماية البحرية التي طلبها منها مرات عديدة، ومصداق ذلك أنه قرر بعد شهرين من لقائه مع شكسبير أن يتحرك دون مساعدة بريطانيا، وأن يحاول تحقيق الحلم الذي راوده مدة عشر سنوات، ألا وهو إخراج الأتراك من آخر جزء من أراضي آبائه من الأحساء.

المدينة الرئيسة في الأحساء هي الهفوف، وهي أكبر من الرياض ذاتها، وهي مدينة مسورة، وبها قلعة حصينة جداً. وقد بدأ ابن سعود هجومه على الأحساء بهجوم على هذه القلعة الحصينة، وقد اتبع في هجومه عليها خطة هي خليط من التكتيك الذي استعمله في استيلائه على الرياض، وذاك الذي استخدمه ضد المتمردين الذين تمردوا عليه في الأجزاء الجنوبية من أراضيه ذلك أنه وقلة من رجاله تسلقوا أسوار قلعة الهفوف، مستعملين جذوع النخل كسلم، ثم قاموا بالهجوم على الحامية من الداخل، كان ذلك على وجه التحديد في مايو ١٩١٤م[١] ولأن الهجوم كان مباغتاً فقد اضطر قائد الحامية مع مجموعة من ضباطه وجنده إلى الاحتماء بمسجد المدينة، وهنا استعمل ابن سعود الجزء الثاني من خطته الحربية، وذلك عندما هددهم بأنه وضع ألغاماً تحت المسجد، وأن أمامهم أحد خيارين: إما البقاء داخل المسجد، الأمر الذي سيضطره إلى نسف المسجد بمن فيه، أو الاستسلام، مع منحهم حق مغادرة المدينة إلى الساحل سالمين، ونحن الآن لا ندري إن كان تهديده بأنه وضع ألغاماً تحت المسجد حقيقياً أم خيالياً ولا ندري أيضاً إن كان فعلاً سيقوم بنسف المسجد، وهو الحاكم المسلم المتدين؟[٢]. والمهم في الأمر أن الأتراك ترددوا نوعاً ما، ولكن ابن سعود أقنعهم بأنه يعني ما يقول فاستسلموا بسلاحهم، وقبلوا أن يرحلوا إلى الساحل، ومنه إلى بلادهم.

لم يحتج ابن سعود إلى عون بريطانيا في استيلائه على الأحساء، بل إنه استطاع صد المحاولة التركية البحرية لاسترداد الأحساء، لأنها كانت محاولة

---

(١) الصحيح أن ذلك كان في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣١هـ الموافق ٥ مايو ١٩١٣م.

(٢) لم تشر المصادر حتى مصادر أعداء الملك عبدالعزيز لمثل هذا العمل وهذا التهديد، وإنما يبدو أنها من بنات أفكار المؤلف ليضفي على هذا الحدث نوعاً من الحبكة القصصية.

يائسة وضعيفة- وكان صدها أمراً يسيراً- وهكذا وفي ظرف أسابيع قلائل، ودون إراقة دماء تذكر، خرج الأتراك من الأحساء، لا ليعودوا إليها أبداً.

اندلعت الحرب بين بريطانيا وتركيا بعد خمسة أشهر من استرداد الأحساء[1]، وأصبح الخليج العربي، والذي كان في ذلك الوقت ذا أهمية تجارية ودبلوماسية ثانوية، أصبح أثناء الحرب الممر الرئيس للسفن الحربية البريطانية، ولو لم يكن ابن سعود قد سبق وأخرج الأتراك من الأحساء، لكانت بريطانيا هي التي ستتولى إخراجهم منها.

(١) الصحيح أن الحرب بدأت بينهما بعد سنة وشهرين من استرداد الأحساء.

٨- موت رجل إنجليزي (موت إنجليزي)

بعد رحلته الصحراوية، سافر شكسبير إلى بلده إنجلترا في إجازة، ولم يكد يصل إنجلترا، حتى كانت الحرب قد اندلعت بين بريطانيا وألمانيا، وبعد ثلاثة أشهر دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، ووصلت فرقة من الجيش الهندي إلى الخليج لتبدأ سلسلة من المعارك المكلفة في أرض العراق، أما الكويت التي عمل فيها شكسبير، بمفرده لفترة طويلة، فقد كانت تعج بحركة الجيوش المارة عبرها.

هكذا تنتشر الحروب، فهي غالباً ما تبدأ بين دول كبرى ثم تنتشر إلى دول أخرى ليس لها دخل في النزاع سبب الحرب، فتتجدد عداوات قديمة، ويبدأ الإنسان في قتل أخيه الإنسان الآخر، إنسان لم يكن قد سمع به من قبل، ناهيك أن يكون بينهما سبب للاقتتال، فيقتتل هذا وذاك، لأسباب لا يعرفانها، فمثلاً ليس هناك سبب لتحارب بريطانيا، تركيا، أو ليحارب البريطانيون الأتراك- أو يحارب هؤلاء أهل الهند، الذين عانوا أسوأ ويلات الحرب لغير سبب وجيه.

في عام ١٩٠٨م وقع انقلاب عسكري في تركيا، هو انقلاب ضباط شبان تركيا الفتاة، وفي عام ١٩٠٩م خُلِع السلطان عبد الحميد[١]، وَوُضِع أخوه الأصغر مكانه[٢].. وكانت العلاقات آنذاك ودية بين تركيا وبريطانيا، أو على

---

(١) كان قرار الخلع بناءً على قرار المجلس العمومي، المكون من الأعيان والمبعوثين، ذلك في يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر سنة ١٣٢٧هـ، الموافق ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٩م.

(٢) وهو محمد رشاد أفندي.

الأقل كانت علاقات هادئة، فمعظم الأتراك لا يعرفون الكثير عن البريطانيين، ولكنهم يحبونهم، والضباط الأتراك الذين تلقَّى عدد منهم تدريبه في ألمانيا هم الذين أطاحوا بالحكومة في عام ١٩١٣م، وأدخلوا بلدهم- بسبب الضغط الألماني عليهم- الحرب إلى جانب ألمانيا، فاضطر الحلفاء إلى إعلان الحرب على تركيا، وبدأت القوات البريطانية والهندية، والتركية تخوض معارك ضارية في أماكن ومواقع بعيدة عن أوطانها، خاصة بعد أن بدأت ألمانيا تهدد الوجود البريطاني في أوروبا.

تختلف مثل هذه الحروب الحديثة عن حروب البدو، فالحروب البدوية مثلها مثل أي حرب أخرى، هي تعبير عن رغبة بدائية في النفس البشرية للقتال، ولكن أساليب البدو في القتال أساليب عتيقة، فهم يقاتلون عدواً يبصرونه، ويرونه أمامهم، قتالهم دائماً قتال رجل لرجل، يقودهم رجل يعرفونه، ويحبونه، والبدو غالباً ما يستمتعون بمعاركهم تلك، التي هي أشبه بلعبة في كرة القدم، وأبعد ما تكون عن معارك الحرب الحديثة حيث القتل المجرد، وغير الإنساني، وحيث الولاء الخادع المضلل.

كان تأثير الحرب العالمية الأولى قليلاً على رعايا ابن سعود؛ ذلك أنها لم تمسهم مباشرة، وإنما حامت حول حدودهم، وبقيت الصحارى والمدن بعيدةً عنها تنعم بالسلام،أو كانت مشغولة بحروبها ونزاعاتها القبلية.

أفادت ألمانيا فوائد جمة من دخول تركيا الحرب، فتركيا تسيطر على مضائق الدردنيل، حيث يمكنها قطع الطريق على الأسطول الروسي في البحر الأسود، كما أن باستطاعتها تهديد مصر، وقناة السويس، بحكم تواجدها في فلسطين، وتركيا قادرة أيضا- عبر العراق وفارس- على إثارة المشاكل في أفغانستان، وربما استطاعت أن تهدد حدود الهند الشمالية الغربية، وفوق هذا

وذاك كانت ألمانيا تتوقع من السلطان العثماني -خليفة المسلمين- إعلان الجهاد، وتوجيه العالم الإسلامي كله ضد بريطانيا. وقد تحدث ثورات في أوساط ملايين المسلمين القابعين تحت الحكم الاستعماري البريطاني، فأعداد المسلمين في الهند تفوق أعدادهم في تركيا وفي الجزيرة العربية مجتمعتين، كما أن هناك عدداً كبيراً من المسلمين الهنود يعملون جنداً في الجيش الهندي، ولذا فاندلاع أي ثورة في أوساطهم سيشل من حركة بريطانيا العسكرية في الشرق، ولكن كل هذه التوقعات والمخاوف لم تتحقق، إذ إن إعلان السلطان العثماني للجهاد لم يكن ذا أثر يذكر خارج تركيا، فرعايا بريطانيا المسلمين وضعوا ولاءهم الدنيوي لها أولاً، ولم يستجيبوا لنداء الجهاد، وكذلك فعل العرب.

لم يكن نقل الجنود بالطائرات الحربية أو بالسيارات أمراً متعارفاً عليه في عام ١٩١٤م، وكان استعمال تلك الوسائل محدوداً جداً، فمثلاً لم يكن في الهند سوى أربع طائرات، ومن ثم فقد كان تحريك الجند ونقلهم يتم إما عن طريق البواخر، والسكك الحديدية، أو عن طريق الخيل والبغال أو مشياً على الأقدام. وكان واضحاً إذاً أن صراعاً قد يحدث بين تركيا وبريطانيا سيكون في أراضي تركيا الآسيوية، وعلى وجه العموم في المنطقة الواقعة على رأس البحر الأحمر، ورأس الخليج العربي، وبين البحر الأحمر والخليج تقع الصحراء، والقوة التي تستطيع كسب صداقة عرب الصحراء، (من القوتين المتحاربتين، بريطانيا، وتركيا)، ستكون هي الرابحة، إذ إن ذلك سيمكنها من استعمالهم كشوكة في جنب العدو، وكعامل إثارة للمتاعب في مؤخرة جيوشه في المعارك القادمة التي ستخوضها القوتان في منطقتي الخليج، والبحر الأحمر.

كانت بريطانيا تشعر بأن حركة مرور سفنها عبر قناة السويس، والبحر الأحمر، ستظل مهددة، ما دام شريف مكة - الذي يحكم غرب الجزيرة- موالياً لسادته الأتراك، كما كانت تشعر بأن طرق مواصلاتها في الشرق- من رأس الخليج إلى بغداد، وعبر نهري دجلة والفرات- ستظل غير آمنة أيضاً، مادامت منطقة نهر الفرات ستكون معرضةً في كل لحظة لهجوم قد يأتي من الصحراء العربية؛ ولذا لم يكن غريباً أن وجد شريف مكة، وابن سعود، وابن رشيد أنفسهم في وسط معترك محاولات الاستقطاب، فكل من القوتين المتحاربتين- الحلفاء وأعداؤهم- تحاول كسبهم، وخطب ودهم، وقد نجح ابن سعود في النهاية في أن ينأى بنفسه عن حرب المحاور تلك، أما شريف مكة الذي كان تحت هيمنة الأتراك، فقد كان رجلاً طموحاً، لن يرضى بوضعه الحالي، وكانت له تطلعات، ومطامع كبيرة، أما ابن رشيد الذي كانت أراضي شريف مكة، وأراضي ابن سعود تعزله، وتفصله عن كل أثر بريطاني، فقد انحاز إلى الأتراك، سادته القدماء، وهكذا ظل ميزان القوى، وميزان الولاءات محفوظاً في الصحراء، فقد كان كل حاكم فيها يفضل مصلحته الشخصية على كل مصلحة أخرى.

كان البريطانيون يعتقدون أنهم يخوضون حرباً عادلة، وكانوا يظنون أنهم على حق، كما كان الأتراك يرون أنهم أيضاً على صواب، وأن الحق في جانبهم. أما العرب فقد كانت لهم نظرتهم لكل من البريطانيين والأتراك، كانوا يعرفون أن للبريطانيين سمعة طيبة، وأنهم أصحاب عدل وأمانة، على الرغم من كونهم نصارى، ولم تكن سمعة الأتراك بالسمعة الطيبة عند العرب -كانت غير ذلك- فقد عرفوا فيهم شيئاً من القسوة والشدة في بعض الأحيان، ولكنهم كانوا -على كلٍ- أخوة مسلمين للعرب، وكانت كل فئة تَعِدُ العرب وعوداً كثيرة،

بالاستقلال السياسي بعد الانتصار في الحرب، وكانوا في بعض الأحيان يغرونهم بالمال، من ثم كان من الطبيعي أن يتغير، ويتذبذب سند العرب لهذا الجانب، أو ذاك، ممثلاً قوة سند العرب لبريطانيا بعد انتصاراتها الأولي، ولكن بعد خسائرها في غاليبولي، وحصار «الكوت» kut قل سندهم لها.

كان الأتراك أول من وصل الرياض حاملين معهم عروضاً مالية وسلاحاً، ولم يكن بوسع حكومة الهند، إرسال مندوب عنها إلى ابن سعود، لأنها كانت مشغولة بإنزال قواتها على مدخل نهري دجلة والفرات، فتلك عملية عاجلة لا تقبل التأخير، لأن لبريطانيا مصفاة للبترول في عبادان على الساحل الفارسي، وهي لا تود التفريط في ذلك البترول، مصدر الطاقة الجديدة لأساطيلها الحربية، التي كانت في مرحلة الانتقال من استعمال الفحم إلى استعمال البترول، والحال كذلك، والتنافس على حكام الجزيرة العربية وما جاورها على أشده، لم يكن أمام الحكومة البريطانية إلا استدعاء شكسبير من إجازته، والعودة إلى مقر عمله بالكويت، فهو البريطاني الوحيد الذي يعرف ابن سعود معرفة جيدة، وأثناء رحلة شكسبير من بريطانيا إلى بومبي ثم الكويت لم يكن مع ابن سعود من يدله على نوايا بريطانيا وسياساتها تجاه المنطقة .

والحال كذلك، كان ابن سعود مضطراً إلى قبول مال وسلاح الأتراك، فقد كان في حاجة ماسة لهما- ومع المال والسلاح أحضر الأتراك خطة للحرب، حُددت فيها تفاصيل الدور المنوط بابن سعود. وملخص خطة الأتراك هي أنهم سيقومون بإصلاح ذات البين بينه وبين ابن رشيد، وسيقوم ابن سعود بالتقدم بجنده للدفاع عن ميناء البصرة العراقي، في حين أن ابن رشيد سيقوم بالمساعدة في الهجوم التركي على قناة السويس ومصر. أما

شريف مكة، وإمام اليمن، فستوكل إليهما مهمة الدفاع عن ساحل البحر الأحمر ضد أي هجوم بريطاني. لم يلزم ابن سعود نفسه بهذه الخطة وكسباً للوقت بدأ يتعلل بأنه ليس بالإمكان مصالحته مع ابن رشيد، وأنه يفضل البقاء في أراضيه للدفاع عنها، وسينتظر حتى يبدأ ابن رشيد تقدمه الفعلي ضد مصر.

عند وصول شكسبير إلى الخليج، وارتحاله إلى الصحراء في الأيام الأخيرة من عام ١٩١٤م، لم يكن أياً من الحكام العرب قد قام بأي خطوة إيجابية- فقد وجد شكسبير ابن سعود وهو في معسكره الحربي بين مدينة بريدة والكويت، يحاول استدراج ابن رشيد للدخول معه في معركة على الرغم من الخطة التركية المعروضة عليه، رحب ابن سعود بشكسبير كصديق قديم له، وأكد له أنه منحاز إلى الجانب البريطاني كليةً، قال عبدالعزيز هذا وأكد عليه، والرسل الأتراك ما زالوا موجودين في الرياض لم يغادروها؛ ولكنه أكد أيضاً أنه يريد اتفاقية واضحة مع بريطانيا، وقال: إنه ما لم يحصل على تلك الاتفاقية، فإنه سيضطر إلى القيام بأعمال قد تبدو أعمالاً ودية نحو الأتراك- والذي لا شك فيه أن ابن سعود قد أدرك وقتئذٍ قوة موقفه، وأراد أن يستفيد منه- ولم يكن غريباً إذاً أن جلس الرجلان- ابن سعود وشكسبير- ليضعا مسودة تلك الاتفاقية، التي طالما طال انتظار ابن سعود لها.

جاءت المسودة شبيهة بالاتفاقيات القديمة بين بريطانيا وشيوخ الساحل الخليجي، تعهدت فيها بريطانيا بالاعتراف وبحماية استقلال ابن سعود، وتعهد فيها عبدالعزيز بعدم التعامل مع أي قوة أجنبية أخرى غير بريطانيا، وتعهدت بريطانيا بدفع نفقات أي حملة من (مال وسلاح) قد يقوم بها

عبدالعزيز ضد العدو، وقد فهم ابن سعود أن العدو في هذه الحالة هو ابن رشيد.

أرسلت مسودة الاتفاقية إلى الساحل، لترسل من هناك إلى كوكس، ثم إلى الحكومة البريطانية في لندن، وبقي شكسبير مقيماً في ضيافة ابن سعود في انتظار رد حكومته. كان شكسبير في هذه الأثناء يشعر بوضعه المميز وبأن المستقبل باهر أمامه، فقد رأى زملاءه في الجيش البريطاني يقتلون على الجبهة الغربية،وهم يقودون قواتهم هناك، في حين أنه - على صغر سنه ووظيفته- هو الوحيد الذي أرسل من إنجلترا إلى الجزيرة العربية بصفته الرجل الإنجليزي الوحيد الذي تربطه رابطة صداقة بابن سعود، وها هو الآن، وقد استطاع بمفرده أن ينجز المهمة التي أرسل من أجلها، فقد أمضى مسودة اتفاق مع ابن سعود أصبح ثلث الصحراء بموجبها يقف إلى جانب بريطانيا، وفوق هذا وذاك، فقد استطاع أن يفعل ما لم يفعله أحد قبله، فهو الآن ضيف معزز مكرم، في كنف أمير عربي، يقود جيشه البدوي لملاقاة عدوه في معركة صحراوية، وذلك أمر لم يحظ به أوربي قبله.

كانت المعركة[1] وشيكة الوقوع بين الرجلين، فابن رشيد قريب من معسكر ابن سعود، ولم يكن شكسبير ليدع هذه الفرصة تفوته، فرصة مشاهدة حرب بدوية لم يشاهدها ضابط بريطاني قبله، حاول ابن سعود إبقاءه بعيداً عن المعركة وخطرها، ولكنه أصر على البقاء، بل على المشاركة فيها. فقد كان لابن سعود مدفع واحد، ورجل واحد لا يحسن استعماله، وأراد شكسبير تولي هذه المهمة مهمة إطلاق المدفع، وعليه وفي يوم ٢٤ يناير ١٩١٤م دخل شكسبير

(١) هذه هي معركة جراب التي حدثت بين الملك عبدالعزيز وبين سعود بن رشيد في ٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ، وقتل فيها شكسبير نفسه.

أرض المعركة ضمن قوات ابن سعود البدوية، وكان لا يزال مرتدياً زيه الحربي البريطاني، بخوذته الحديدية الواقية من الشمس.

كانت معركة تقليدية عادية، لولا وجود شكسبير فيها، بدأت بتقدم خيالة ابن سعود نحو قوات ابن رشيد، وبتقدم المشاة أيضاً، ومعهم شكسبير بمدفعه، ولما بدأت قوات العدو تتقدم بدورها نحوهم نصب شكسبير المدفع على تلٍ صغير، وعند اقتراب العدو، أمر الجندي المسؤول عن المدفع يطلق النيران على القوات المتقدمة نحوهم، وشكسبير واقف على مكان عال يرقب الموقف بواسطة نظارة ميدان أحياناً، ويصيح أحياناً، معطياً التعليمات للمدفعجي لضبط اتجاه تصويب نيران المدفع، وسرعان ما التحم مشاة الجيشين بعضهم ببعض، وفي هذه الأثناء أصيب شكسبير بطلق ناري في فخذه، ولكنه لم يتزحزح عن مكانه، بل ظل واقفاً يوجه المدفعجي، واشتد التحام الجيشين، حتى بدأ الجانبان يقاتلان بالسيوف، وتعسر على صاحب المدفع إطلاق نيرانه لاختلاط الصفوف، فجلس يرقب سير المعركة.

بدأت كفة قوات ابن رشيد ترجح، إذ سرعان ما انكسر مشاة ابن سعود، وبدؤوا يهربون، ولما رأى الجندي المسؤول عن المدفع بوادر الهزيمة، أخفى بعض أجزاء المدفع في الرمال، وبدأ يتراجع استعداداً للفرار، وكان ينادي على شكسبير أن انج بنفسك، ولكن شكسبير لم يفعل، وإنما بقي واقفاً في مكانه لم يغادره – ونظر صاحب المدفع الفار، فرأى هجانة (جمالة) ابن رشيد يقتربون من شكسبير، ورآه يستعد لمواجهتهم،ثم شاهده وهو يسقط في الرمال تحت أرجل الجمال وكانت تلك هي نهايته، وعندما ذهب صاحب المدفع بعد شهرين من المعركة ليبحث عن أجزاء المدفع التي كان قد أخفاها في الرمال، رأى جثة شكسبير مُلْقَاة على التل الصغير.

كان موت شكسبير بهذه الطريقة مدعاة لكثير من التخرص والتخمين- فهل ظل شكسبير واقفاً في مكانه حتى لقي حتفه لأنه لم يستطع الفرار بسبب الطلق الناري الذي أصابه في فخذه؟- ولكن الجندي المسؤول عن المدفع قال: إنه لم يحاول الفرار- أو هل لم يكن شكسبير على دراية بقوانين وأعراف الحرب البدوية، التي تحبذ الفرار في مثل هذه الأحوال؟ أم هل لم تسمح له نخوته ، وعنْجهيَّته كأحد أفراد الجيش الهندي- (نخوة عهد الشاعر البريطاني كبلنج)، بالفرار من أرض المعركة- فتقاليد ذلك الجيش لا تسمح بأن يترك الجندي سلاحه ويهرب، وإنما يبقى معه حتى النهاية.

لم تكن المعركة حاسمة، فقد تحارب الجيشان، وغنم بعضهما من بعض، ثم تفرقا، دون أن تسفر عن المعركة نتيجة نهائية اللهم إلا موت شكسبير فيها، فقد كان لموته أثر على سير الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط، فلم يأت خلف لشكسبير إلا بعد مضي ثمانية عشر شهراً، وكان ذلك الخلف هو لورانس الذي عمل مع شريف مكة أثناء ثورته العربية الكبرى، والذي تمتع بثقة العرب وحبهم، كما تمتع بهما شكسبير من قبل. ولو قدر لشكسبير العيش لتمكن من تنظيم السند البريطاني لابن سعود، ولتمكن من توجيه قواته من البدو والإخوان -الذين كانوا محاربين أحسن من جند شريف مكة- توجيههم شمالاً نحو بغداد، أو غرباً نحو خط سكة حديد الحجاز، ولما كانت هناك حاجة إلى جهود لورانس، والمعارك الحربية التي خاضها، ولما تمكن من كتابة تحفته الأدبية أعمدة الحكمة السبعة.

كتب ابن سعود إلى كوكس بعد موت شكسبير قائلاً: «يا للحسرة، إن صديقنا الودود الذي أراد لنا الخير، أصيب من بعد، ومات، ولقد ألححنا عليه أن يتركنا قبل بدء القتال، ولكنه أصر على أن يكون حاضراً، قائلاً: إن أوامري

هي أن أكون معك، وإن تركتكم سيكون ذلك ضد شرفي وأوامري، ويجب أن أبقى بكل تأكيد. أرجو أن تنقلوا إلى حكومة صاحب الجلالة أساي وحزني»[1].

أراد ابن سعود أن يرسل له كوكس ضابطاً آخر مكان شكسبير، ولكن يبدو أن موت شكسبير لم يشجع كوكس على إرسال شخص آخر، فالضباط العارفون للغة العربية، والذين لهم مقدرة على تحمل مشاق الصحراء عملةً نادرة في منطقة الخليج، وحاجة الجيش العامل في العراق شديدة لهم، ثم إن القيادة البريطانية العليا كانت قد فقدت كل اهتمام بابن سعود، فقد بدا لها أن ابن سعود غير متحمس للقيام بأي من المهمات الحربية التي كان يرجى أن يقوم بها، فقد كانت تلك القيادة ترجو أن يشارك عبدالعزيز في المجهود الحربي البريطاني إما بالعمل على مضايقة القوات التركية على طول نهر الفرات، أو بمضايقتها على خط سكة حديد الحجاز، أو على أقل تقدير بحرمان تلك القوات من عون وسند ابن رشيد لها، وقد وضح للقيادة البريطانية العليا أن ابن سعود مشغول لظروف طارئة عن القيام بأي من هذه المهمات، ذلك أن معركته مع ابن رشيد التي قتل فيها شكسبير كانت قد أفقدته الكثير من الرجال والسلاح، وأنهكت إمكاناته، ومن ثم شلت من قدرته على الحركة، مضافاً إلى ذلك فقد بدأت مصاعبه ومشكلاته القبليه، إذ إن إحدى قبائل الأحساء ثارت عليه- وهو في هذه الظروف الصعبة- الأمر الذي سيجعله مشغولاً لفترةٍ طويلة بذلك الصراع القبلي الذي اندلع من جديد.

(١) هذا النص مقتطف من رسالة من الملك عبدالعزيز إلى بيرسي كوكس، بتاريخ ٤ فبراير ١٩١٥م/١٣٣٣هـ، يعزي فيها مصرع شكسبير في معركة جراب.

وفي أثناء هذه الثورة القبلية، وحربه للمتمردين البدو، جرح ابن سعود في فخذه، وطارت إشاعة تقول: إنه أصيب في موضع حساس من جسمه، وإن تلك الإصابة ستجعله عاجزاً عن ممارسة واجباته كزوج- أي إنه ربما أصبح عاجزاً جنسيا، وكان لهذه الإشاعة أثر سيء على رجاله، ولكنه قضى على الإشاعة عندما تزوج فتاة في تلك الليلة، فانقشعت السحابة.

جاء قبول الحكومة البريطانية لمسودة الاتفاقية بين ابن سعود وشكسبير بعد عدة شهور من إرسالها إلى لندن- وقد حمل موافقة الحكومة رسول عادي إلى ابن سعود، بدلاً عن رسول رسمي خاص- ربما لعدم توفر مثل أولئك الرسل أيام الحرب، وأمضى ابن سعود الاتفاقية بعد إبداء بعض التحفظات عليها، وبعد سنة من موت شكسبير، وعلى وجه التحديد في آخر أسبوع من عام ١٩١٥م، قابل ابن سعود كوكس على ساحل الأحساء، حيث تم التصديق على الاتفاقية التي كان مجيئها بعد طول انتظار مما أفقدها نكهتها[1]. وتبع التصديق عليها منح ابن سعود عوناً بريطانياً قدره خمسة آلاف جنيه شهرياً. وهدية عبارة عن ألف بندقية. والواقع أن حكومة الهند لم تكن آنذاك شديدة الحرص على إسهام ابن سعود في المجهود الحربي البريطاني.

إذ إن معارك العراق كانت قد قطعت شوطاً بعيداً، وحققت نجاحات واضحة دونما حاجة إلى سند ابن سعود، وكأنما أراد البريطانيون بتقديم هذه الهدايا له أن يكسبوا هدوءه.

(١) تعرف هذه الاتفاقية بمعاهدة دارين (القطيف) وكانت في ١٨ صفر ١٣٣٤هـ/٢٦ ديسمبر ١٩١٥م.

٩- لورانس وشريف مكة

عندما كان ابن سعود مشغولاً في الأجزاء الشرقية من بلاده، بإخراج الأتراك من الأحساء، وبمساوماته مع البريطانيين في الفترة ١٩١١م-١٩١٥م، كان على علم تام بأن هناك خطراً آخر يهدده من الجهة الغربية، ذلك هو خطر شريف مكة في الحجاز، ولتتبع المنافسة بين ابن سعود والشريف لا بد من الرجوع سنوات قلائل للفترة التي سبقت اندلاع الحرب العالمية الأولى .

ينتسب الشريف إلى النبي ﷺ، وقد كان في فترة ما قبل الحرب حاكماً على الحجاز من قبل الدولة العثمانية، وقبل ذلك كان قد قضى حوالي ثمانية عشر عاماً كضيف على السلطان في استامبول، ضيف أشبه بالسجين ولكن وبعد اندلاع ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨م، عين حاكماً على الحجاز، وحامياً للحرمين الشريفين.

الشريف حسين رجل يختلف تماماً عن ابن سعود، وأملاكه الحجازية تختلف أيضاً عن أملاك ابن سعود النجدية، فالشريف مثلاً ليس بدوياً، ولكنه حضري من أهل المدن، وأمه شركسية.. «مملكته» ليس مملكة صحراوية، رغم وجود الصحاري، وسكان الصحاري فيها، وهي مملكة حضرية في سياستها، وفي نظرتها، وقوتها ومركز ثقلها في مدنها، مكة، والمدينة، وجدة، وإذا ما قورنت بأراضي ابن سعود الفقيرة، فهي سليمة اقتصادياً، ثرواتها تأتي من الحج، وتجارة الحجيج، ومن ما يبيعونه لهم، وما يشترون منهم، ومن الخدمات التي يقدمونها لهم، من سكن، ومأكل، ومشرب، ومواصلات، فأهل الحجاز

يعتمدون على الحج ووارداته، كما أن حياة المدن وترف المدن جعلهم أصحاب ترف، وممارسات لا يقرها أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية الذين طالما تطلعوا إلى تصحيح بعض الممارسات، ومحاربة البدع المتفشية بين أهل الحجاز.

الفرق بين الصحراء الواسعة الواضحة، وبين أزقة مكة الضيقة المتعرجة يعكس لنا الفرق بين طبيعة شخصية ابن سعود حاكم الصحراء، وبين طبيعة شخصية الشريف حسين حاكم مكة، فقد وصف لنا شكسبير ابن سعود بأنه رجل سهل، غير معقد، وبأنه صريح، ولكن معظم من قابلوا شريف مكة قالوا بأن طبعه عكس طبع ابن سعود، فهو مدني، متحضر، وذو حضور ملوكي، واسع الاطلاع، وربما كان ساحراً وذا جاذبية في بعض الأحيان، ولكن الصراحة ليست من صفاته، بل على العكس، فهو رجل غامض، وعنيد، يتحلى بفطنة وذكاء، ولكنه شديد الشك، والارتياب حتى في أقرب أصدقائه، وهو رجل تقدمت به السن، فهو يكبر ابن سعود بسنوات كثيرة، فقد كان عمره في عام ١٩١٠م حوالي خمسة وخمسين عاماً، وكان كلما تقدمت به السنون كلما ازداد غموضاً، حتى ليصعب على المرء معرفة أفكاره، وآرائه، بسبب ما ينسج حولها ما يشبه الخيوط العنكبوتية، فقد كان مثلاً دائم الشك في البريطانيين، وله أسبابه الوجيهة في ذلك، ولعل الصفة الوحيدة التي تجمع بين الشريف حسين، وابن سعود هي طموحهما الشديد، فقد كان الشريف يطمع،ويتطلع في أن يكون ملكاً على العرب؛ ولكن عقبات عدة وقفت في طريق تحقيق طموحه هذا، الأمر الذي دفعه إلى حافة الجنون، هذا؛ في الوقت الذي كان فيه ابن سعود يحقق معظم طموحاته.

وبسبب طموحهما، والتناقض الواضح بين شخصيتيهما، كانا يتنافسان، ويتصادمان، فالتنافس بينهما قديم، وأسبابه ضاربة في القدم، فأهل الحجاز- الذين عرفوا أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية قبل قرن من

الزمان، حينما دخل هؤلاء الحجاز فاتحين[1]- كانوا يخشون الدعوة وأنصارها، وكانوا ينظرون إليها وإلى تزايد نفوذها بكثير من الوجل وعدم الارتياح، فتجربتهم الأولى معها لم تكن تجربة سعيدة، كما أن الشريف حسين كان يعارضها لأسباب شخصية، وكان يخشى أيضاً من تزايد نفوذها، ويرى فيها عقبة قد تقف في طريق تحقيق طموحاته، ولذا كان طبيعياً أن يطلب من السلطان العثماني في عام ١٩٠٤م، العمل على كبح جماح ابن سعود، والوقوف بصرامة أمام نشاطه التوسعي، قبل فوات الأوان، وقد حاول السلطان أن يفعل ذلك، ولكن محاولاته باءت بالفشل، ولما عُين الشريف حاكماً على الحجاز بعد انقلاب شبان تركيا الفتاة في استامبول في عام ١٩٠٨م، كان يرى أن يقوم هو بمحاولة إيقاف ابن سعود عند حده، وكان يعتقد أن قيامه بهذه المهمة التي فشل فيها السلطان العثماني، سيعزز من فرص تحقيق طموحاته، وسيهدِّئ من مخاوف رعاياه الحجازيين -الذين قلنا إنهم كانوا يخشون الدعوة السلفية ويخشون تزايد نفوذها- وسيزكيه لدى حكام تركيا الجدد، الذين طوقوا عنقه بتعيينه حاكماً على الحجاز، وقد سنحت له فرصة نادرة، وذلك عندما التجأ إليه بعض المعارضين لابن سعود عام ١٩١١م بعد فشل تمردهم عليه، وكان يرى أنه لو ساعدهم على الحصول على الحكم في نجد، فسيصبحون تابعين له، ورهن إشارته.

وأسعفه الحظ بفرصة ذهبية أخرى، وذلك عندما وقع الأمير سعد- أخو ابن سعود- في أسره، فقد كان الأمير سعد يحاول تجنيد بعض رجال القبائل بالقرب من الحدود الحجازية استعداداً لمعركة أخيه مع خصومه وتصادف أن كان الشريف حسين موجوداً في المنطقة نفسها يحاول أيضاً تجنيد بعض

(١) يشير المؤلف هنا إلى دخول الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى الحجاز عام ١٢١٨هـ.

الرجال لقواته، وقد أُخِذ الأمير سعد على حين غرة، فوقع أسيراً في يد الشريف.

وبالتجاء خصوم ابن سعود إليه ووجود الأمير سعد رهينة عنده كتب الشريف حسين إلى شيخ الكويت، وإلى حاكم شمر الرشيدي طالباً مساعدتهما ضد ابن سعود، وظناً منه بأنه قد تمكن من توحيد كل القوى المعادية للأمير السعودي تحت لوائه، شرع الشريف حسين في القيام بحملة قوامها ثلاثمائة بدوي، ضد أملاك ابن سعود، وأخذت هذه الحملة تتقدم في الأراضي السعودية.

بدأت المشاكل تواجه تلك الحملة، بعد عبورها الحدود، وتوغلها حوالي مئة ميل داخل أراضي ابن سعود، وهناك تبين للشريف حسين أن شيخ الكويت، وابن رشيد لن يأتيا لمساعدته، لأنهما- كما قال ابن سعود لشكسبير آنفا- يعدان العدة لطرد الأتراك من الجزيرة العربية، وأنهما من ثم لا يرغبان في مساعدة الشريف الموالي للأتراك، إضافة إلى هذا الخذلان من جانب شيخ الكويت، وأمير حائل، جاءت الأنباء، بأن ابن سعود يتقدم نحوه بقوة كبيرة تفوق قوته عدداً وعدة، وعندئذ بدأ بدو الشريف ينقصون تدريجياً من حوله، ورغم ذلك بقي الشريف ثابتاً في مكانه لا يغادره ، لعلمه أن موقفه قوي مادام الأمير سعد رهينة في يده، ولتأكده أن ابن سعود لن يجرؤ على مهاجمته:

توقف المتنافسان بقواتهما قبالة بعضهما، وبدأت مكاتبات بينهما، بدأها الشريف بإرسال رسالة إلى ابن سعود قائلاً إنه لم يأت ليحارب، وإنما جاء من أجل إعادة بسط سلطته، وسلطة الدولة العثمانية على إقليم القصيم، التي ظلت معطلة لفترة من الزمن على الرغم من أنها سلطة تؤيدها وتثبتها الأحداث التاريخية، ومضى الشريف ليطلب في رسالته تلك من ابن سعود دفع ضريبة سنوية تعادل مبلغ ستة آلاف جنيه، من الدخل الذي جمعه من هذا الإقليم، كما طلب منه أيضاً أن يعد بمساعدة القوات التركية بالرجال والمؤن

كلما دعت الحاجة لذلك -وربما عنى الشريف بالقوات التركية هنا قواته هو- وأشار الشريف في ختام رسالته تلك -ضمناً- إلى أن الأمير سعد سيرسل إلى تركيا كسجين إن رفض ابن سعود تلك الشروط.

رد ابن سعود بإرسال هدايا قيمة إلى الشريف واستمر تبادل الخطابات بينهما دون أن يلتقيا وجهاً لوجه، وفي النهاية أفرج عن سعد حيث أخذه ابن سعود معه إلى الرياض، وكرَّ الشريف قافلاً إلى مكة ظاناً أن ابن سعود قبل شروطه المهينة، وأنه قد سجل بذلك انتصاراً دبلوماسياً عليه، وقد أسهبت الصحف التركية والمصرية في حديثها عن ذلك النصر الدبلوماسي المبين، وعندما علم كوكس بالشروط التي قيل إن ابن سعود قد قبلها، علق قائلاً إن احتمال تنفيذها من جانب عبدالعزيز احتمال ضعيف، وكان كوكس محقاً في توقعه ذاك، إذ إن ابن سعود لم يدفع فلساً واحداً للشريف، بل إنه قال في حديث لاحق له مع شكسبير إنه لم يعد بشيء على الإطلاق، وإن كل ما قاله الشريف دعاوى باطلة، قال بها لإنقاذ ماء وجهه، وليغطي بها على فشل حملته ضده. ولكن الشريف حسين لم يكن بالرجل الذي يقنع بمثل هذه الهزيمة فقد كانت تلك هي محاولته الأولى ضد ابن سعود، ولن تكون الأخيرة. وقبل أن يقوم الشريف بمحاولته الثانية ضد الأمير كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت، وغيرت الأوضاع كلية في الجزيرة العربية وأعطته فرصة سيشتهر فيها اسمه، ويذيع صيته، كما أنها -أي الحرب- غيرت نظرة الإدارة الاستعمارية البريطانية للجزيرة العربية، ولابن سعود حاكم أواسطها وأجزائها الشرقية. وللشريف حسين حاكم أجزائها الغربية.

وبدا واضحاً أن كتشنر -المفوض البريطاني السامي في مصر- ومساعديه منحازون إلى الشريف حسين تماماً، وأن معلوماتهم عن أواسط الجزيرة العربية، وعن ابن سعود بسيطة، وغير كافية -كما قال شكسبير في أحد تقاريره التي أرسلها إلى كوكس، بعد زيارة كان قد قام بها إلى مصر-

والواقع أن البريطانيين في مصر كانوا ميالين لرؤية الجزيرة العربية، كما يراها الشريف حسين، كما كانوا مستعدين لقبول طموحاته كما يراها هو. وكانوا ينظرون إلى ابن سعود على أنه أقل أهمية بالنسبة لمصالحهم الاستعمارية من الشريف، وفي مقابل هذا الرأي كان البريطانيون العاملون في الخليج العربي منحازين إلى جانب ابن سعود، مدركين لأهميته.

كانت الفجوة تتسع بين الفريقين في أثناء الحرب العالمية الأولى، فمثلاً عندما كان كوكس، والقيادة العسكرية العليا في العراق، قد اقتنعوا بعدم الحاجة إلى العون العربي في المجهود الحربي البريطاني، كانت القيادة البريطانية العليا في مصر، والمكتب العربي، هناك يرون عكس ذلك تماماً، فقد كانوا مقتنعين تماماً بأن العون العربي ضد الأتراك، أمر ضروري جداً، ولقد برهن نجاح معارك العراق أنهم كانوا على حق، ولكنهم كانوا مخطئين عندما وقع اختيارهم على الشريف حسين كقائد للعرب، وبرهان ذلك، الفوضى التي خلفوها وراءهم في الجزيرة العربية.

ومع هذا كان لابد من اختيارالشريف حسين، فمنصبه كشريف مكة هو أعلى منصب يحتله عربي، وأراضيه أراض مهمة، بموقعها المهم على ساحل البحر الأحمر، كما أن لورانس وزملاءه في المكتب العربي في القاهرة كانوا متحمسين له، ولا يرون رأي كوكس ورجاله العاملين في منطقة الخليج العربي، ولم يكونوا على استعداد للاستفادة من ابن سعود، ولو فعلوا لوقفت انقسامات الإدارة البريطانية في طريقهم، فقد زار لورانس الخليج العربي قبل بداية معركته العربية الكبرى؛ ولكنه غادر غاضباً عندما رفض الحاضرون رأيه. ذلك أن الخلاف بين الفئتين كان خلافاً عميقاً، فهو نتاج لتقليدين مختلفين، منفصلين، ولمظهرين منفصلين أيضاً للعقلية البريطانية- يتمثلان في شخصيتي لورانس من جهة- وكوكس من جهة أخرى، فلورانس وزملاؤه في المكتب العربي بالقاهرة أشخاص ديناميكيون واثقون من أنفسهم، وهم هواة

غير محترفين، لهم قدرة ظاهرية على إقناع غيرهم برأيهم، مقنعين، رائعين حتى ولو كانوا على خطأ. أما كوكس وحكومة الهند، فقوم حذرون محترفون متعاطفون دائماً مع من حولهم، وإن كان لهم عيب واحد، فهو أنه ينقصهم شيء من الخيال ولكنهم في تقويمهم للموقف في الجزيرة العربية ولحكامها، كانوا على صواب.

هناك عوامل وأسباب أخرى وراء مساندة المكتب العربي في القاهرة للشريف حسين، منها: أن له ولأبنائه صداقات وصلات في أوساط العرب المثقفين في تركيا، وفي سوريا وفلسطين، والذين كانت لهم مواقف قومية من الحكم التركي، وكان البريطانيون في القاهرة يرون أنه إذا ما نجحت بريطانيا في استقطاب الشريف حسين، فإن ذلك سيشجع روح الثورة على الأتراك في نفوس أولئك القوميين العرب، ومن تلك العوامل خوف البريطانيين من أثر السلطان العثماني -خليفة المسلمين- على المسلمين في الهند، خاصة وأن لأولئك المسلمين ارتباطاً شديداً بخليفة المسلمين، كقائد لأمة الإسلام، ثم ارتباطهم بالأماكن المقدسة في الحجاز- مكة والمدينة- مقصد الحجاج المسلمين من كل مكان. وكان اعتقاد الإداريين والسياسيين البريطانيين في مصر أن الشريف - كخادم للحرمين الشريفين- يمكن أن يشكل قوة موازية لأثر الخليفة العثماني، تستطيع أن تبقي ولاء المسلمين في الهند إلى جانب بريطانيا، ولكن هذا التوقع انتفى بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وذلك حينما تأكد للبريطانيين وقتئذ أن ولاء المسلمين الهنود الكامل هو لبريطانيا، وليس لسواها، وواضح أن كلا العاملين اللذين جعلا القائمين على المكتب العربي في القاهرة، ينحازون إلى الشريف حسين، لا دخل لهما بالعرب في الجزيرة العربية، فهما يخصان عرب سوريا، ومسلمي الهند.

لكل هذه الأسباب لم يكن أمام البريطانيين في القاهرة إلا اختيار الشريف حسين قائداً للثورة العربية ضد الأتراك، ومساندته مساندة كاملة بالمال والسلاح،

وقد أخطؤوا تماماً حينما ظنوا أن الشريف يحظى بسند العرب، فليس له أتباع وأنصار، وطموحاته لقيادة العرب لا تجد سنداً إلا من الفئة القليلة المحيطة به، والشريف ذاته على الرغم من نسبه الكريم لم يكن سوى صنيعة للأتراك، الذين فرضوه حاكماً على أهل الحجاز، ولذا لم يكن غريباً أنه بعد النجاح الأولي الذي لاقته ثورته عندما تمكن من طرد الأتراك من جدة ومكة، أن توقف نجاحه، وفقد جنده كل رغبة في القتال، وركدت حركته الحربية بسبب الحاجة الماسة إلى قائد حقيقي يحرك القتال، ويديره. وذلك هو السبب الذي أدخل لورانس إلى الثورة عله يملأ فراغ القيادة ذاك، ولقد استطاع لورانس فعلاً، بمعاونة ابني الشريف عبد الله وفيصل، وبعبقريته، وبالسند المالي البريطاني، أن يخطو بالثورة من نجاح إلى نجاح، ولكنها كانت نجاحات لا تمثل الآمال والتطلعات العربية، وإنما تمثل إرادة لورانس، وقوة بريطانيا. والواقع أن طموح الشريف ازداد مع تحقيق هذه النجاحات، وازدادت طلباته من بريطانيا، ليس لتعينه بالمال والسلاح فحسب، وإنما لتعده بالمساعدة على تحقيق حلمه الأكبر، ألا وهو أن يصير ملكاً على كل العرب، ولم يكن أمام البريطانيين في القاهرة، -والحرب على أشدها، وظناً منهم أنه القائد العربي الملهم- إلا أن يعدوه وعوداً- مباشرةً وغير مباشرةً- لم يكن بإمكانهم تحقيقها؛ وذلك لأنهم تجاهلوا الأمير عبدالعزيز، ولم يحسبوا له حساباً.

تلك كانت فترة عصيبة في حياة ابن سعود، فقد كان يشعر شعوراً قوياً بإهمال بريطانيا له، فها هو يعيش مهملاً في الرياض، لا يعبأ به أحد، في حين أن بريطانيا كانت تقدم المال والعتاد للشريف حسين،ذلك الشريف الذي لا يكن له هو احتراماً، بل يكن له كل احتقار كمنافس له، وكمسلم أيضاً، كانت الشكوك تراود ابن سعود بأن بريطانيا ربما خدعته، وأرادت أن تقبض يديه، وتحد من نشاطه بإعطائه هذه المعونة الضئيلة -خمسة آلاف جنيه في الشهر- في حين أنها تبني بكل السبل قوة الشريف ربما ليتمكن الشريف في يوم من الأيام من اكتساحه والقضاء عليه.

ومع كل هذا، احتفظ ابن سعود بهدوئه، ورباطة جأشه، وظل متشبثاً بما يشبه البساطة بالصورة التي تركها كوكس وشكسبير لبريطانيا في نفسه، وقد عكست رسائله إلى كوكس عزة نفسه، وكرامته، فلم يشكو فيها أبداً من المضايقات التي تسببها له السياسة البريطانية المتناقضة، وإنما كان يعبر فيها عن توجسه من أن الشريف حسين قد يستعمل المال والسلاح الذي تقدمه له بريطانيا للهجوم عليه عاجلاً أو آجلاً، وكثيراً ما تساءل في تلك الرسائل وبطريق غير مباشر عن ماذا سيحدث لو قام الشريف بمثل ذلك الهجوم عليه؟ هل ستحذره بريطانيا بأن لا يتعرض لاستقلاله، وهي التي ضمنت له ذلك الاستقلال؟ أم ستقع عليه مهمة الدفاع عن نفسه، وهو قادر على ذلك؟ أم أن بريطانيا ستعتبر ذلك العمل من جانبه تهديداً لمصالحها؟ كان ابن سعود يثير كل هذه التساؤلات في رسائله إلى كوكس. وكان يختتمها بأنه على استعداد دائماً ليقبل نصح كوكس له.

لم يكتف ابن سعود بالكتابة إلى كوكس، بل كتب إلى الشريف حسين طالباً منه التأكيد على عدم المساس باستقلاله، ولكن الشريف المليء بغرور السند البريطاني له، رد على رسالة ابن سعود رداً ينضح بالاحتقار، وذلك حينما قال: إنه لا يكتب مثل تلك الرسالة له إلا رجل مجنون، أو مخمور. واتهام الشريف -شريف مكة- لابن سعود الرجل المتدين بأنه قد يكون مخموراً أمر في غاية الإهانة، ولكن ابن سعود لم يفعل أكثر من أنه أرسل صورة من رسالة الشريف هذه إلى كوكس.

لم يكن أمام كوكس- ذلك البريطاني الذي تمكن بجهوده المخلصة من أن يكسب ثقة العرب، وأن يبني لبلده سمعة طيبة في منطقة الخليج -إلا أن يعمل على تهدئة ابن سعود، وأن يتظاهر بأن التزامات بريطانيا للشريف حسين ليست التزامات جدية كما تبدو، وأن يطمئنه بأن الأمل معقود في إيجاد حل وسط كريم للخلافات بينه وبين الشريف بعد انتهاء الحرب، قال كوكس كل هذا لابن

سعود وهو مدرك في قرارة نفسه أن الوعود التي قطعتها بريطانيا للشريف حسين لا تتماشى مع الاتفاقية التي أمضاها هو مع ابن سعود، وأن تلك الوعود والاتفاقية ستصطدمان يوماً ما، وعندها سيتهم كل من الشريف، وابن سعود بأن بريطانيا نقضت عهدها له، وتنكرت له. والواقع أن وجهة النظر البريطانية كانت تتلخص في أنه إذا ما وقع المحذور، فإن ابن سعود سيفعل أحد أمرين: إما أن ينحاز في ساعة غضب إلى الأتراك، ويبدأ بتسبيب المتاعب للقوات البريطانية في العراق، وإما- وهذا هو الأسوأ- أن يهاجم الشريف حسين، ويعطل بذلك جهود لورانس الحربية. وحتى لا يحدث أي واحد من هذين الأمرين، فقد قام كوكس- كما أسلفنا- بتطمين ابن سعود، ودرء المخاوف والشكوك التي كانت تساوره.

كان المكتب العربي في القاهرة يحس بخطورة الموقف، الأمر الذي دعاه إلى إرسال «المستعرب» رونالد ستورز إلى الخليج لبحث الأمر مع كوكس، والذي اقترح بدوره على ستورز الذهاب إلى الرياض لشرح وجهة نظر زملائه في القاهرة لابن سعود. وقد بدأ ستورز رحلة إلى الرياض، ولكنه لم يستطع إكمالها، إذ إنه أصيب بضربة شمس وهو في عرض الصحراء، فاضطر للرجوع إلى الساحل.

بعد فشل مهمة ستورز اقترح أحدهم في الإدارة البريطانية، تكريم ابن سعود بمنحه لقب «سير» لإرضائه، ولحل مؤقت للأزمة. وتقرر أيضاً تكريم الشيخ جابر[1]، حاكم الكويت الجديد. وقد تم ذلك التكريم لكلا الرجلين في الكويت بحضور كوكس كممثل للملك جورج الخامس، وتكلم في أثناء الحفل عدد من العرب الموجودين، بمن فيهم ابن سعود مثنين على الوحدة العربية،

(١) جابر بن مبارك آل صباح، ويعرف بجابر الثاني، ولد عام ١٢٩٠هـ، ومات عام ١٣٣٥هـ، خلف والده في إمارة الكويت سنة ١٣٣٤هـ.

وذاكرين مزاياها، وكان بإمكان ابن سعود أن يطلق على نفسه لقب «سير» بعد ذلك التكريم،ولكنه لم يستعمل ذلك اللقب أبداً.

تبع التكريم قيام ابن سعود بأول رحلة خارجية له. فقد دعاه البريطانيون إلى زيارة الجيش البريطاني في البصرة، وقد تعرف في تلك الزيارة على تنظيم ذلك الجيش الذي كان مختلفاً تماماً عن جيشه. واستعرضوا المدفعية أمامه، كما أروه عظامه بعد أن تم تصويرها بالأشعة في المستشفى. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يركب فيها الأمير قطاراً، والتي يرى فيها طائرة، والتي تتحدث إليه مباشرةً امرأة غير محجبة، حديث الند للند، تلك هي الرحالة البريطانية السيدة (جير ترود بيل)[1]، والتي كانت وقتئذ ضمن الموظفين العاملين مع كوكس.

أبدى ابن سعود اهتماماً ملحوظاً بمعظم ما شاهده في تلك الرحلة، ولكنه لم يقر الكثير مما شاهد، وقد أظهر البريطانيون الذين قابلوه إعجابهم به، ولكنه بالمقابل لم يرض عن بعض عاداتهم التي صدمته.

أرسلت (جير ترود بيل) تقريراً سرياً إلى المكتب العربي في القاهرة عن زيارة ابن سعود إلى البصرة، وصفت فيه ابن سعود وصفاً دقيقاً، حيث قالت إن له بنية جسمية رائعة، فقامته تمتد لأكثر من ستة أقدام، وقالت: إن سلوكه هو سلوك رجل تعود أن يأمر فيطاع، وأضافت أنه على الرغم من ضخامة جسمه التي تجعله مختلفاً عن شيوخ البدو الآخرين، إلا أن ملامحه كلها تدل على أنه من نسل عربي، عريق يدل على ذلك سيماء وجهه،أنفه، شفتاه، وذقنه الطويل الضيق، ثم شكل لحيته، وقالت:إن له يدين رقيقتين، وأصابع نحيلة وكل تلك سمات معروفة في العرب الخلص. وتحدثت عن حركاته المضبوطة وابتسامته البطيئة الحلوة، وعينيه

(١) ولدت عام ١٨٦٨م/ ١٢٨٥هـ، من أسرة ثرية، في شمال انجلترا، قامت بِعِدَّة رحلات في شمال الجزيرة العربية، كانت تود زيارة الرياض، إلا أنها لم تستطع، كانت تعنى برسم الخرائط للمواقع الأثرية في بلاد الشام والعراق، حصلت على رتبة ضابط سياسي، أقامت أكثر حياتها في العراق، ووافتها المنية عام ١٩٢٦م/١٣٤٤هـ في بغداد.

ذات الأهداب الطويلة، وذات النظرة العميقة المتأملة، ثم ذكرت قوة احتماله الجسدية العجيبة، وقالت: إنهم يقولون عنه: إنه راكب للجمال لايدانيه راكب، جريء في المعارك، وفوق كل هذا، له مقدرات رجل دولة. هكذا وصفته السيدة (بيل) وهو وصف قد يروق له ويعجبه.

كرر ابن سعود وعده للبريطانيين بأنه سيهاجم ابن رشيد، وأنه لن يتعرض للشريف حسين. وقد أهداه البريطانيون في رحلته تلك «سيف شرف ومبلغاً من المال، وأربعة مدافع رشاشة، كما أنهم قاموا بتدريب أربعة من رجاله على استعمال تلك المدافع، وقد ظلت هذه المدافع بعد ذلك قابعة في مخازن قلعة الهفوف؛ ذلك أن سنة كاملة قد انقضت دون أن يهاجم ابن سعود ابن رشيد. وأثناء تلك الفترة مات ثلاثة من الرجال الذين دربوا على استعمال المدافع الأربعة، ونسي الرابع طريقة تشغيلها، ولما لم يكن بجانب ابن سعود مندوب بريطاني، يشجعه ويحثه على مهاجمة ابن رشيد، فقد ظل قابعاً صامتاً في الرياض.

لم ترسل بعثة بريطانية دائمة إلى ابن سعود إلا في أكتوبر ١٩١٧م[1]، ولكن جاء إرسالها متأخراً، إذ إن قوات الشريف حسين تحت قيادة لورانس كانت قد تمكنت وقتئذ من إنهاء السيطرة التركية على الحجاز، ودخلت ميناء العقبة منتصرة وهي في طريقها إلى فلسطين، كما أن الشريف كان قد أعلن نفسه ملكاً على الجزيرة العربية. وبدأت مناوشات بين قوات الشريف حسين، وقوات ابن سعود على الحدود الفاصلة بين بلديهما. مناوشات لم يكن بالإمكان إيقافها.

(١) هذه البعثة كانت برئاسة جون فيلبي، وقد ترجمت ونشرت عن طريق مكتبة العبيكان، عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- الرياض في ١٩٥٠م -

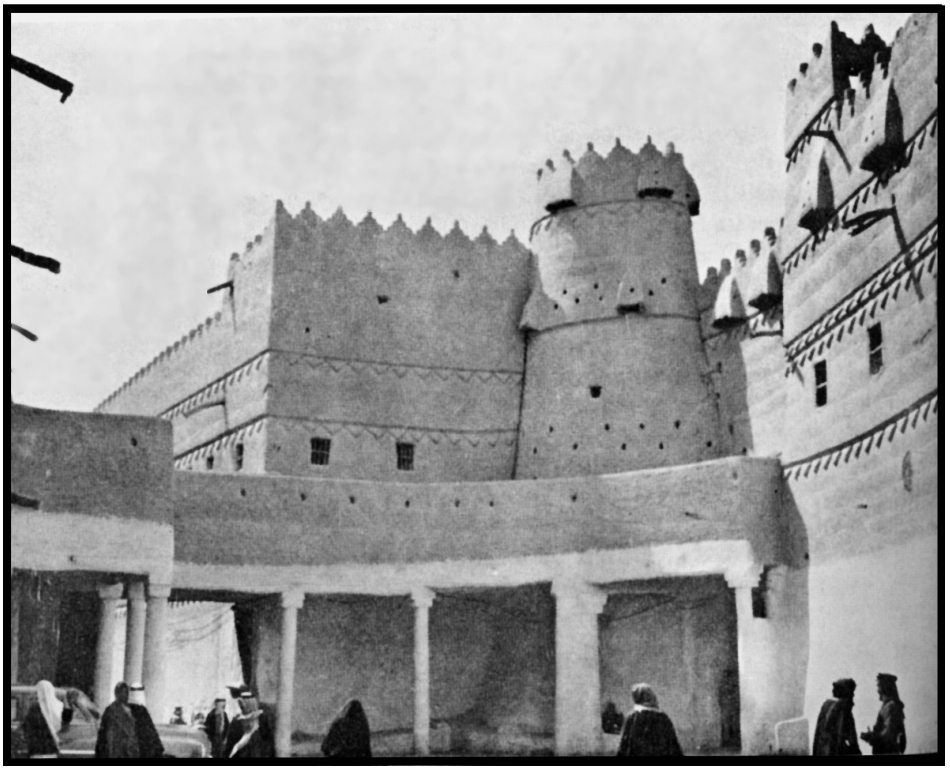

- قصر ابن سعود في الرياض لمدة تقرب من خمسين سنة -

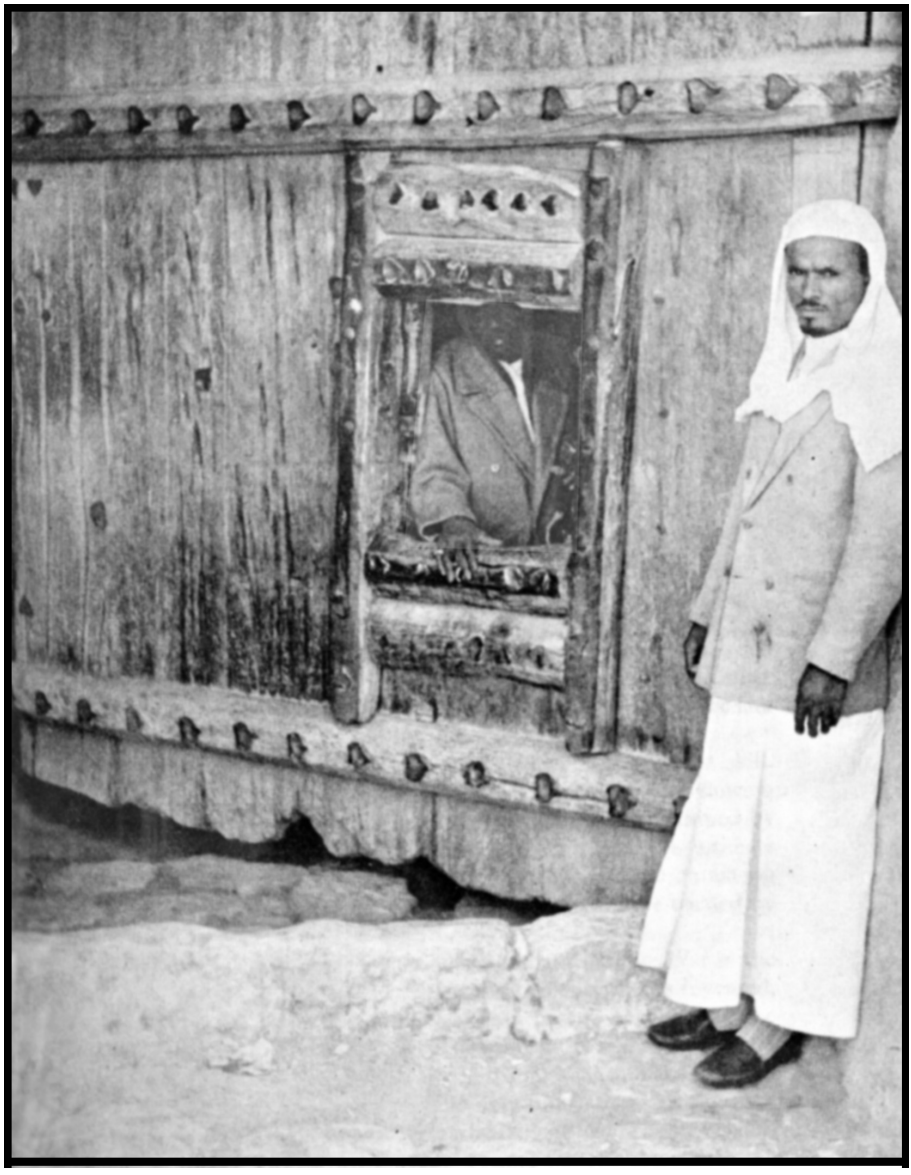

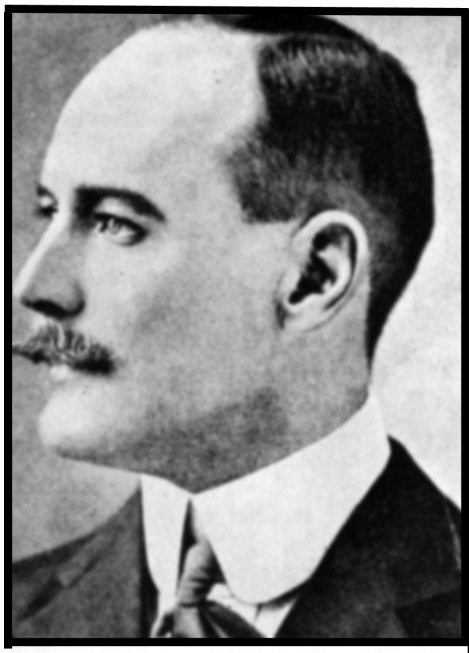

- ويليام شكسبير -

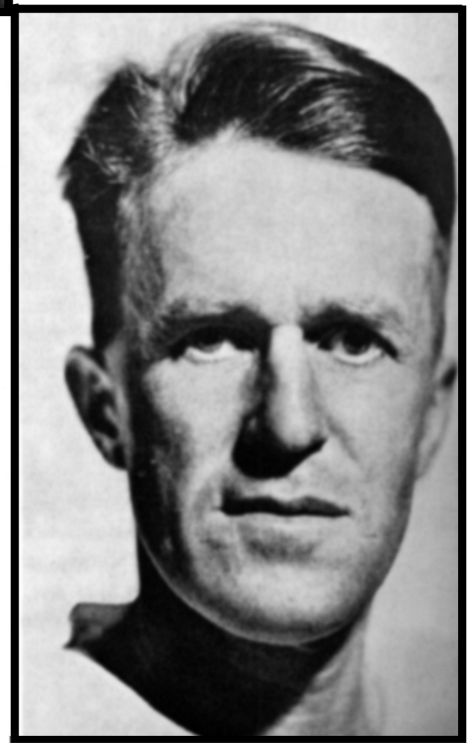

- تي. إي. لورنس -

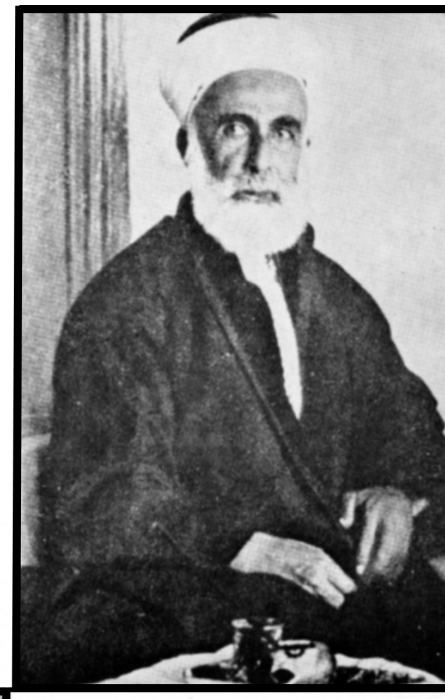

- شريف مكة -

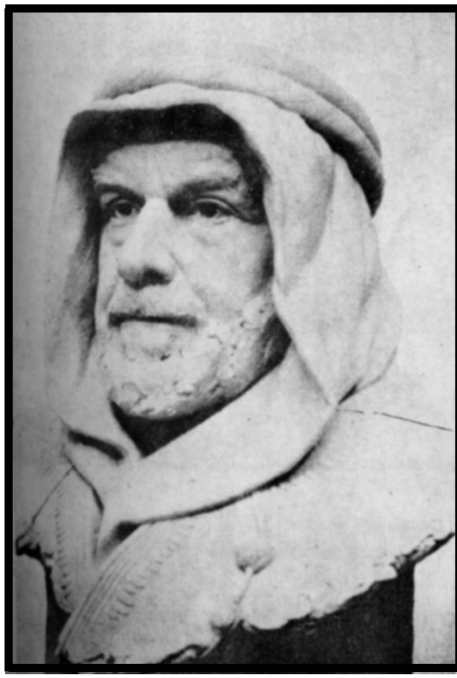

- هاري سانت جوون فيلبي -

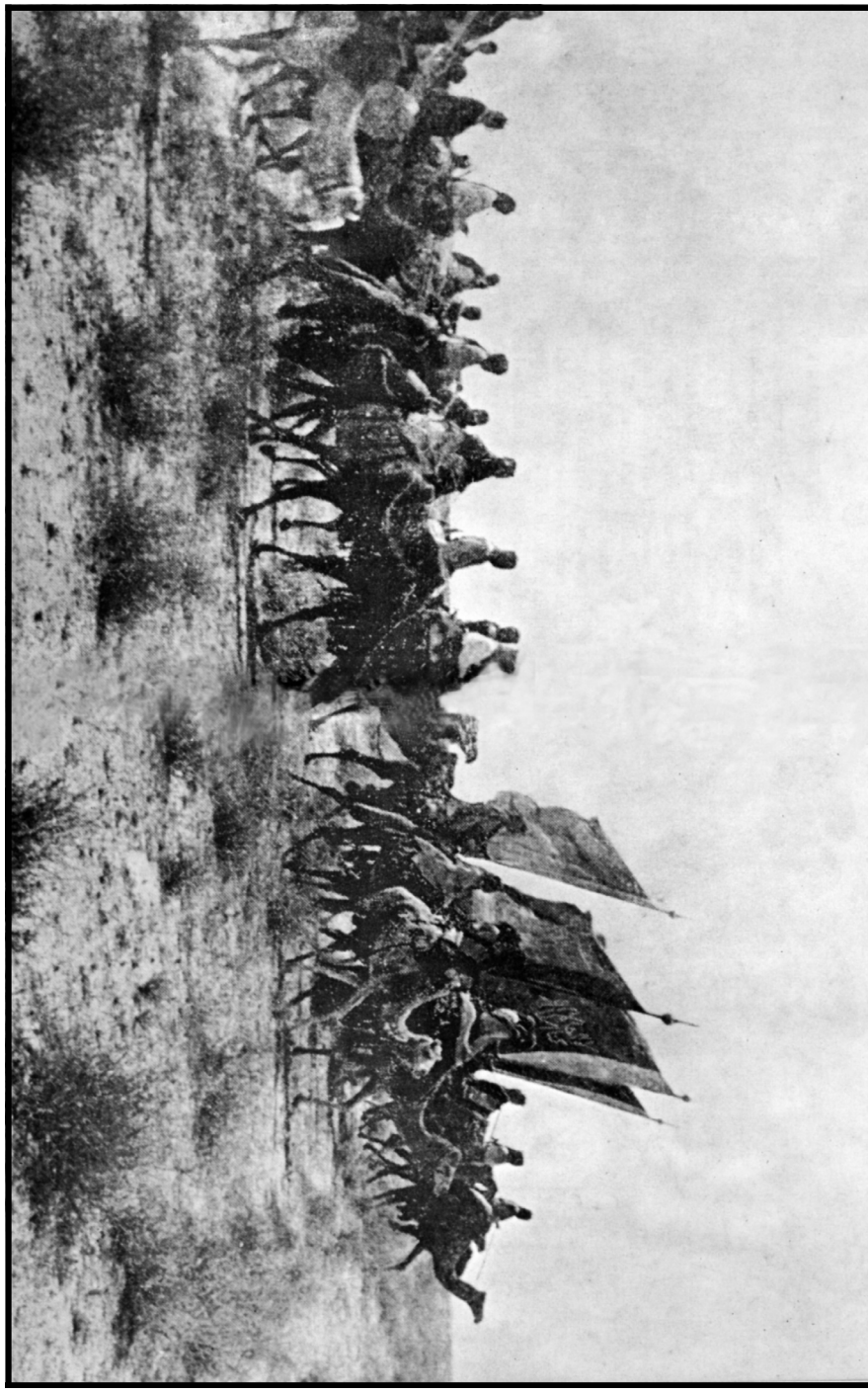

- ابن سعود مع بيرسي كوكس وجيرترود باريس ١٩١٦م -

- ابن سعود مع كوكس والميجور هوليز في مؤتمر عكير ١٩٢١م -

- فوق يسار: فيصل الدويش قائد ثورة الأخوة. يمين: جون كلوب حامي رعاة العراق -

- ابن سعود وتشيرشل في عام ١٩٤٥م بين المستشارين عبدالله السليمان في أقصى اليمين والشيخ حافظ وهيبي بجانبه -

- قافلة أرامكو لترسيم الزلازل في الربع الخالي، لم يكن هناك أسرار خافية في الجزيرة العربية -

- الماء: تتحول الصحراء إلى أزهار بواسطة الري -

- ابن سعود مع اثنين من أولاده الصغار -

- يسار: أكبر أولاده وخليفته الملك سعود . يمين: ثاني أكبر أولاده الأمير فيصل -

١٠- فيلبي

كان هاري سانت جون فيلبي، هو رئيس البعثة البريطانية التي أرسلت إلى الرياض في أكتوبر ١٩١٧م، وهو رجل إنجليزي غريب الأطوار والأفعال، وقد أصابه فيما بعد إعجاب شديد بابن سعود، هو أقرب ما يكون إلى إعجاب الرجل العادي بالأبطال، ولعل ذلك هو الذي دعاه لإلحاق نفسه ببلاط ابن سعود، وظل مرتبطاً به بقية سني عمره، كما عُرِفَ فيلبي بأنه أكثر الرحالة المكتشفين على أيامه سفراً وتجوالاً في الجزيرة العربية، وأكثر الكتاب تأليفاً عنها.

كان فيلبي -أحد مساعدي كوكس- موظفاً بسيطاً، ولم يكن كلورانس جندياً، أو شاعراً، أو شخصية بطولية كشخصيته- على الرغم من كونه قد عاش في الجزيرة العربية فترة أطول من الفترة التي عاشها لورانس فيها، وأنه قد ارتحل في أرجائها أكثر منه. ومثله مثل لورانس، فقد اختلف في النهاية مع حكومته البريطانية. وكان فيلبي من الرجال الذين يرون أنهم دائماً على حق، والآخرين على باطل، فمثلاً عندما تشاجر مع البريطانيين، وتعارك مع العرب فيما بعد، كان يعتقد جازماً أنه هو دائماً المصيب، وأن لكل أفعاله مبرراتها. كان لفيلبي أصدقاء كثر تهويهم، وتعجبهم أحاديثه المشوقة، كما كان له أعداء كثر لا تعجبهم صراحته الشديدة، وطبعه الميال للنقد دائماً.

ألف فيلبي حوالي اثني عشر كتاباً عن الجزيرة العربية[1]، وكان مكباً على تأليف كتب أخرى عنها في سنوات عمره الأخيرة، والمتمعن في كتبه يراها تعكس العديد من جوانب شخصيته، ربما أكثر مما يريد أن يعرفه الناس عنه، أو لعلها تعكس جوانب منها لم يعرفها أو يفهمها هو ذاته. وكتبه تلك إلى جانب اتسامها بالسذاجة، فهي مليئة بكثير من الحشو، وبحذلقة أدبية واضحة، وبآراء صلبة عنيدة، ولكنها مع ذلك لا تخلو من روح فكاهية تقليدية، ومن شيء من سحر وجاذبية، حببتاه إلى نفوس أصدقائه القريبين الحميمين. ويبدو فيلبي من خلال كتبه تلك كصاحب عقل فاحص ناقد، وكمؤلف له كم هائل من المعلومات الفريدة، ورغبة جامحة في إيصال تلك المعلومات إلى قرائه.

ولكن فيلبي لم يكن يرى نفسه كما رآها الآخرون، ولذا لم تكن له القدرة على أن يقول ما يريد قوله بطريقة يقبلها الآخرون- رحلاته الاكتشافية التي قام بها في الجزيرة العربية رحلات جريئة، وحقيقية، والملاحظات الجغرافية التي دونها خلالها كانت معلومات دقيقة، ومفيدة، حظيت بإعجاب الأمريكيين الذين جاؤوا فيما بعد منقبين عن النفط في الجزيرة العربية. والقلة من العرب الذين قرؤوا كتبه التاريخية، يختلفون مع آرائه دوماً. ولو بقي فيلبي بقية حياته موظفاً في الخدمة المدنية، لانتهى إلى لا شيء، ولبقي نكرة مبهمة، ولكن بانفصاله عن تلك الخدمة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وباتباعه

(١) تقوم مكتبة العبيكان بنشرها مترجمة إلى اللغة العربية لأول مرة، وقد نشر بعضها (مغامرات النفط العربي، وحاج في الجزيرة العربية، والربع الخالي، وبنات سبأ)، والبقية في طريقها للنشر إن شاء الله.

لابن سعود وتكريس بقية حياته للارتباط به فقد أوجد فيلبي هدفاً فريداً لحياته، وجعل لها غرضاً سامياً، واكتسب من ثم شهرة، فاقت شهرته الحقيقية كمكتشف جريء.

ولحسن حظ فيلبي فقد ظل ابن سعود دائماً صديقاً له، وإن تشاجرا في بعض الأحيان، فقد كان فيلبي دائماً على استعداد لمناقشة ابن سعود في كثير من الأمور، وكان لا يتردد في إبداء رأيه، وكثيراً ما كان يصحب ابن سعود، يميزه زيه العربي، وجسم ينم عن قوة، ولحية مستديرة، وحبه للجدل والنقاش، هو رجل بريطاني حتى النخاع، ولكنه في الوقت نفسه عربي أكثر من العرب، دائماً على استعداد لتنوير ابن سعود عن العالم الغربي، وأيضاً لتعريف الغرب به- وهو في كلا الحالتين يرسم صوراً ملونة بلون شخصيته الغريبة.

كان فيلبي واحداً من موظفي كوكس عندما أرسل رئيساً إلى تلك البعثة الذاهبة إلى الرياض. ولم يكن هدف البعثة يختلف عن هدف بريطانيا القديم وهو: حث ابن سعود لمهاجمة ابن رشيد، وحثه أيضاً على عدم التعرض للشريف حسين، وعدم مهاجمته- وكلا الهدفين مهم في استراتيجية بريطانيا الحربية ضد الأتراك. ولكنهما لا يأخذان رغبات ابن سعود، ولا رغبة رعيته في الحسبان، فقد يكون ابن سعود مثلاً أو يكون علماء دولته، راغبين في مهاجمة الشريف حسين لأسباب سياسية ودينية. وقد تكون تلك رغبة حقيقية وضرورية، ولكن البريطانيين لا يريدون ذلك.

كانت حاجة ابن سعود ماسةً إلى المال، ومن ثم كان اعتماده على المعونة البريطانية كبيراً، وابن سعود لا يحب المال لذاته، ولكن المال كان ضرورياً

للسيطرة على أملاكه، والمحافظة عليها، فهو يحتاج إليه لرعاية هجر البدو التي بدأت تتكاثر، ولإعداد جيوشه، ولإعانة شيوخ القبائل ومساعدتهم، وأيضاً لشراء أعدائه، وفوق هذا وذاك للمحافظة على تقاليد الكرم المنوطة بالحكم- فالكل يقصدون ابن سعود لقضاء أمر أو آخر. فيبقون في ضيافته،فيطعمهم، ويكسوهم، وعند مغادرتهم لابد من إهداء شيء لهم، وهناك الألوف من هؤلاء ينتظرون حول قصره، والحال هكذا والدخل محدود جداً، فالمعونة البريطانية لا تتعدى الستين ألفاً من الجنيهات في العام، ودخله الآخر، من الضرائب والمكوس وغيرها لا يتعدى هذا المبلغ أيضاً. ومن ثم فهو من دون العون البريطاني مفلس تماماً، والحاجة تقتضي الاستماع إلى ما يقوله الإداريون، والرسل البريطانيون القادمون عليه.

في لحظات الحرب العالمية تلك كان الهجوم على ابن رشيد أمراً ضرورياً وملحاً بالنسبة لبريطانيا، فقد استطاعت قوات الشريف حسين بقيادة لورانس أن تطهر الحجاز من الأتراك، وبدأت في التقدم مع جيش «اللنبي» نحو الأتراك في فلسطين، ويبقى من بعد ذلك ابن رشيد الخطر الماثل على بريطانيا في الجانب الأيمن. وعليه كانت الحاجة شديدة في القضاء عليه، أوعلى الأقل تحييد قواته. لخطره الواضح على القوات البريطانية في العراق، فقد استطاعت القوات البريطانية والهندية من الاستيلاء على أراض زراعية واسعة في تلك الجهات، وأصبحت تركيا محاصرة تقريباً لا يأتيها الطعام إلى عن طريقين: التهريب عن طريق الكويت، أو التهريب عن طريق صحارى ابن رشيد، وهكذا بدت الحاجة الماسة لمعالجة ابن رشيد.

لم يكن من العسير على ابن سعود وفيلبي الوصول إلى اتفاق بينهما في تلك الظروف، وكان العرض الذي تقدم به فيلبي هو: إعطاء الأمير أربعة مدافع ميدان، ورجالاً مدربين على استعمالها، وعشرة آلاف بندقية، وعشرين ألفاً من الجنيهات لشراء الجمال، وخمسين ألفاً أخرى شهرياً مدة ثلاثة أشهر، وهي المدة المتفق عليها للقضاء على ابن رشيد، وإذا ما قورنت هذه الإعانة بما كان يقدم للشريف حسين، فإنها بسيطة لا تساوي شيئاً، ولكن الشريف كما قال فيلبي منوط به أمر كبير.

وفي يوم من الأيام التي كانت تجرى فيها المفاوضات في القصر بين ابن سعود، وفيلبي، سمعت أصوات أعيرة نارية، قيل إنها كانت بمناسبة انتصار سجل على الشريف حسين، وذلك أن علماء الرياض كانوا قد أرسلوا -ربما بعلم ابن سعود أو بعدم علمه- بعض الوعاظ، والدعاة لدعوة أهالي واحة الخرمة الحدودية للانضمام لأنصار الدعوة السلفية، وقد رحب أهالي الواحة بالدعاة والدعوة، وتحمسوا لها للحد الذي طردوا فيه حاكم الشريف حسين عليهم، وأعلنوا ولاءهم لابن سعود. لهذا السبب أطلقت الأعيرة النارية التي سمعت من داخل قصر ابن سعود أثناء مفاوضاته مع فيلبي، وبهذه الصفة دخلت هذه الواحة المغمورة الخرمة حلبة الصراع بين الحاكمين المتنافسين، الشريف حسين وابن سعود.

وعلى الرغم من هذه الأنباء السارة الآتية من واحة الخرمة فقد وافق ابن سعود على مضض على عرض فيلبي، ووعد بأن يقوم بحملة نهائية ضد ابن رشيد. وعندئذ أرسل فيلبي رسولاً إلى كوكس يخطره ببنود الاتفاق، راجياً منه التصديق عليه.

بعد نجاح فيلبي في مهمته تلك، تصرف تصرفاً يتسم بعدم المسؤولية، واللامبالاه- نسخ به نجاحه في إمضاء الاتفاق،- كان من المفروض أن يأتي ستورز في هذه الأثناء من ساحل البحر لينضم إلى فيلبي في الرياض- وكان الشريف حسين لا يوافق آنذاك على عقد اجتماع بين البريطانيين وابن سعود في الرياض، ومن ثم فلم يسمح لستورز بالسفر عبر أراضيه إلى الرياض، متعللاً بأن الطريق إلى تلك المدينة غير آمن- ولما سمع فيلبي بذلك، طلب من ابن سعود السماح له بالذهاب إلى الحجاز، وإقناع الشريف بسفر ستورز والعودة مع ستورز للرياض، وأرسل فيلبي إلى كوكس يخبره بنيته تلك، ولكن وقبل أن يستلم رد كوكس، غادر إلى الحجاز- ربما لعلمه أن كوكس سيأمره بالبقاء في محطته في الرياض.

كتب فيلبي - فيما بعد- في أحد كتبه عن تصرفه هذا، معترفاً بأن دوافعه وراء رحلته إلى الحجاز كانت خليطاً من دوافع شتى، لم تكن كلها نابعةً من متطلبات الموقف - وأضاف أن تصرفه ذاك كان أمراً غير بال، وأنه غير نادم عليه- هذا هو قول فيلبي وتعليله لرحلته الحجازية تلك، ولكن الواقع أن الأمر لم يكن بسيطاً، أو تافهاً كما ادعى فيلبي، بل كان أمراً مؤسفاً حقاً، ذلك أن فيلبي استغل مهمته الرسمية التي من أجلها أرسل إلى الرياض، استغلها ليقوم برحلة استكشافية يعبر فيها الجزيرة العربية من الساحل إلى الساحل لا لسبب، إلا ليرضي طموحه، وغروره الشخصي. ونتيجة رحلته الحجازية تلك أنه لم يتمكن من العودة إلى الرياض في الوقت المناسب، والبقاء إلى جانب ابن سعود وهو يعد العدة لهجومه النهائي على ابن رشيد، فقد عاد فيلبي إلى الرياض، ليس بعد شهر واحد كما وعد ابن سعود، ولكن بعد أربعة أشهر

كاملة، وبعد فوات الأوان- ذلك أنه عندما وصل إلى الحجاز، وأراد العودة مع ستورز إلى الرياض، رفض الشريف السماح له بالعودة إلى الرياض عبر أراضيه، فاضطر إلى الذهاب إلى القاهرة، ومنها إلى بومبي، ثم إلى الخليج ومن هناك إلى الرياض- وفي هذه الأثناء كانت الحرب في فلسطين قد شارفت نهايتها، وأصبحت هزيمة تركيا أمراً وشيك الوقوع، ولم يعد لبريطانيا حاجة لجهد ابن سعود الحربي، ومساعدته في القضاء على ابن رشيد، فسحبت بريطانيا عرضها الذي كان فيلبي قد قدمه له- مده بالمال والسلاح... إلخ- الأمر الذي أثار غضب ابن سعود على بريطانيا، وعلى الشريف أيضاً- ولما عاد فيلبي وجده غاضباً، فحاول تهدئته، ومنعه من مهاجمة الشريف، بأن أقرضه مبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات- من الأموال التي كانت ما زالت في عهدته، أقرضه ذلك المبلغ تحت مسؤوليته الخاصة، وأقنعه بعد ذلك بالهجوم على حائل عاصمة ابن رشيد.

فشلت الحملة على حائل بسبب عدم توفر المدافع الكافية لدك أسوار المدينة، وعند رجوع ابن سعود من حائل كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت. وهكذا ومن جراء رحلة فيلبي الطائشة تلك إلى الحجاز، فقد فقد ابن سعود المال والسلاح اللذين كانت بريطانيا قد تعهدت بتقديمهما له.. وفقد معاونة بريطانيا له على القضاء على أحد أعدائه -ابن رشيد- وأسوأ من ذلك كله، فقد انتهت الحرب، والشريف حسين حليف للدول المنتصرة فيها، في حين أن سمعته هو في أعين البريطانيين كانت سمعة رجل غير حاسم، أي لا يتخذ القرارات الحاسمة كما أراده البريطانيون، ولكن هذا الحكم على ابن سعود كان حكماً خاطئاً، فعدم اتخاذ القرارات الحاسمة لم يكن خطأ ابن سعود، أو

مسؤوليته، وإنما خطأ ومسؤولية الإدارات البريطانية في الهند والخليج (كوكس وجماعته)، والتي كانت تتردد في اتخاذ القرار، فعدم الحسم ناتج عن ترددها ذاك، وليس راجعاً إلى ابن سعود، أما في حالة الشريف حسين، فإن حسم الأمور واتخاذ القرارات الحاسمة كان بسبب قوة شخصية لورانس، وثقة زملائه في المكتب العربي في القاهرة بأنفسهم ، وليس للشريف دخل في ذلك. وقد وضحت مزايا الرجلين لابن سعود والشريف حسين، وقدراتهما على اتخاذ القرارات عندما بَعُدَ عنهما الأثر البريطاني في السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى.

١١- سقوط بيت آل رشيد

في تلك السنوات العصيبة من حياة ابن سعود، وعندما كانت أموره تسير على صور غير مرضية له، ألمت به بعض المآسي الشخصية، فقد عصف وباء (الأنفلونزا) الذي عم العالم في ١٩١٩م بمدينة الرياض، وراح ضحيته ثلاثة من أبنائه - بمن فيهم ابنه البكر تركي- وكذلك زوجته الجوهرة، والتي كان ارتباطه بها وثيقاً وطويلاً، وأحبها حباً جماً، وقد حزن حزناً شديداً على فراقها، فهي زوجته المفضلة، والتي تقول بعض الروايات إنها إحدى ست زوجات تمنى لقاءهن في الجنة يوم الحشر الأكبر[١].

كذلك كان حزنه على ابنه تركي شديداً، فهو ابنه الأكبر، والذي كان يصغره بسنين ليست بالكثيرة، فقد كان عمر تركي عند وفاته عشرين عاماً، وعمر والده ابن سعود حوالي تسعة وثلاثين عاماً- وكان تركي بمثابة الأخ الأصغر له، كما أنه كان وسيماً إلى حد كبير، وكان شبيه والده في حبه للصيد والحرب، وكان ذراعه الأيمن ينوب عنه في غيابه منذ أن كان في السابعة عشرة من عمره، وقد قاد عدداً من المعارك الناجحة، وكان ابن سعود يعده ليخلفه من بعده في الحكم. ولذا كان موته ضربةً قاسية عليه.

---

(١) تقابل هذه السنة عام ١٣٣٧هـ، وتعرف عند أهل نجد بسنة الرحمة.

وكان على ابن سعود أن يتحرك في عدة اتجاهات لحسم عدة أمور، فالحركة -كما يقولون- دواء ناجح للشعور بالحزن والأسى، فهناك عدة أمور تنتظر الحسم والمعالجة، فمسألة الخرمة مثلاً ما زالت بدون حل، وكان عليه أن يوليها شيئاً من اهتمامه، وآل رشيد ما زالوا ثائرين، غير خاضعين، مسببين مشاكل له. والشريف حسين ما زال مستمراً في تعاليه عليه، واحتقاره له، وإساءاته إليه- وأسوأ من هذا كله فقد كانت الاقتراحات المطروحة في مؤتمر الصلح في «فرساي» تثير قلقه، ومخاوفه.

كان الشريف حسين ممثلاً في مؤتمر الصلح بابنه فيصل، أما هو فلم يدع إلى حضور ذلك المؤتمر، وكل ما كان باستطاعته فعله هو إرسال ابنه الثالث فيصل ذي الأربعة عشر ربيعاً إلى لندن، لتهنئة الحكومة البريطانية بالنصر. والواقع أن القرارات التي صدرت في النهاية عن مؤتمر الصلح لم ترض لا الشريف حسين، ولا ابن سعود. كما أن ازدواجية السياسة البريطانية بدت واضحة جلية للعيان آنذاك، فمثلاً بعد أن كان البريطانيون في الخليج قد ضمنوا لابن سعود استقلال بلاده، وشجع إداريو المكتب العربي في القاهرة أحلام الشريف بمملكة عربية واسعة.

بعد أن فعلوا ذلك، كانوا قد أمضوا في عام ١٩١٦م اتفاقاً سرياً مع الفرنسيين[١]، والروس قضوا بموجبه على جزء كبير من آمال الشريف حسين، والذي كان يظن أن مملكته الموعودة ستشمل الجزء الأكبر من أراضي الهلال الخصيب، والأراضي العربية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأرض العراق، ولكن تبين فيما بعد أن ذلك الاتفاق السري قسم هذه البلاد:

(١) تعرف هذه الاتفاقية بـ (اتفاقية سيسبيكو).

- فلسطين، سوريا، ولبنان- بالإضافة إلى شرق الأردن، والعراق- إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية، وكان التكتم على هذا الاتفاق شديداً إلى الدرجة التي لم يخطر به لورانس، ورؤساؤه في القاهرة ، والذين أقنعوا وشجعوا الشريف حسين على الثورة، وساعدوه على قيادتها، وكذلك لم يكن كوكس على علم بالاتفاق- وعندما انكشف أمره للورانس، شعر بأن حكومته قد غشته، وضللته، وأنه بدوره قد غش الشريف حسين وضلله دون علم أو قصد منه بذلك- ولأن الثورة العربية كانت قد قطعت مرحلة بعيدة آنذاك، ولم يكن بالإمكان إيقافها، فقد صمم لورانس على أن يجعلها تنجح نجاحاً باهراً- يجعل حكومته تشعر بالخجل لتنكرها وإهمالها لمطالب العرب.. كان هذا هو مخرجه من المأزق الذي وجد نفسه فيه.

ولكن تلك المطالب العربية ضاعت في غضون المساومات التي كانت جاريةً في «فرساي»، فقد عدل نظام مناطق النفوذ الذي تحدثت عنه الاتفاقية الأنجلو- فرنسية- روسية في عام ١٩١٦م، ليصبح نظاماً للانتداب تحت حماية عصبة الأمم. فأصبحت سوريا ولبنان بموجب ذلك النظام الجديد، تحت الانتداب الفرنسي، والعراق وفلسطين، وشرق الأردن (والذي أنشئ كإمارة جديدة) تحت الانتداب البريطاني وضاعت آمال الشريف حسين.

تعد فكرة الانتدابات هذه- والتي تنسب إلى الجنرال سمنتس والرئيس ويلسون، فكرة مثالية، أريد بها إعطاء الشعوب الناهضة اعترافاً دولياً مؤقتاً، وإبقاؤها تحت إشراف دولة منتدبة، حتى يأتي الوقت الذي تكون فيه تلك الشعوب قادرة على الوقوف على قدميها- وقد تجاهلت أو غاب عن تلك الفكرة- أنه ربما كان للدول المنتدبة مآرب أخرى، أو أن تلك الشعوب قد لا ترضى بمثل ذلك الإشراف المفروض عليها، أو أنها قد تكون راغبةً أساساً في

الاستقلال، عاملةً من أجله، حتى قبل ظهور فكرة الانتداب، وأن نظرة تلك الدول إلى موظفي الدولة المنتدبة قد تكون نظرتها إلى استعماريين يستعمرون بلادهم، والواقع أن الانتداب في الشرق الأوسط أصبح لكل من بريطانيا وفرنسا عبئاً أثقل مما كانت تتوقع، وأن الانتداب سبب كثيراً من الشعور بالمرارة بين شعوب تلك المنطقة.

كان الانتداب على فلسطين أتعس تلك الانتدابات، لأنه تضمن إقامة وطن قومي لليهود فيها، دون المساس بمصالح الأغلبية العربية هناك، وكان على بريطانيا كدولة منتدبة على فلسطين محاولة تحقيق هذا الهدف المستحيل، والتوفيق بين الآمال العربية، والأحلام الصهيونية المتضاربة. وكان ذلك أمراً صعب المنال، انتهى بفشل السياسة البريطانية في فلسطين، واكتسابها لعداء العرب والصهيونية سوياً.

وعلى الرغم من مشاكل ابن سعود الحدودية، ومشاكله الداخلية، وعلى الرغم من أنه ليس لبلاده حدود مشتركة مع فلسطين، فقد بقي -شأنه شأن كل عربي مخلص معارضاً -وبضراوة - لاستيطان اليهود في فلسطين وظل على تلك المعارضة لم يتزحزح عنها طيلة حياته، ففلسطين بالنسبة له بلد عربي منذ فجر التاريخ، واليهود دخلاء غرباء عليه، لا حق لهم- تاريخي أو غيره- فيه. وكان على يقين أن هجرتهم إلى فلسطين ستؤدي حتماً إلى إقامة دولة صهيونية فيها، سيصبح خطرها السياسي، والعسكري عظيماً على كل البلاد العربية.

كان من أهم مشكلات ابن سعود بعد نهاية الحرب- هي مشكلة واحة الخرمة التي نفضت عن نفسها ولاءها للشريف، وأعلن أهلها ولاءهم لابن سعود، ومن ثم كانوا يستنجدون به كلما أرسل الشريف حسين حملة من

حملاته عليهم. ولكن يد ابن سعود كانت مقيدة بموجب الوعد الذي قطعه لكوكس بعدم مهاجمة الشريف، وليقينه أنه إذا ما حارب الشريف- والذي ما زال حليفاً لبريطانيا- فإن بريطانيا ستقطع عنه المعونة المالية التي كان في أمس الحاجة لها. ولكن قواته - قوات الإخوان- لا تعي هذه الأمور التي تقيد، وتمنع حركته ضد الشريف حسين، وكانوا لا يفهمون: لماذا يتردد أميرهم في نجدة أهل الخرمة أنصار الدعوة السلفية الجدد، وبدأ الإخوان يتذمرون تذمراً واضحاً، هدد في بعض الأحيان بالتحول إلى تمرد وعصيان. والحال كذلك، قرر ابن سعود أخيراً قيادة الإخوان لوقف تدخل الشريف حسين في الخرمة ولحماية أهلها من حملاته المتكررة عليهم. وكان يدرك وقتئذٍ بأنه يخاطر بعلاقته مع بريطانيا.

في هذه الأثناء عقد مؤتمر في وزارة الخارجية البريطانية في لندن لمناقشة مسألة واحة الخرمة، لأن كلا من ابن سعود، والشريف حسين كانا قد تقدما بشكوى للحكومة البريطانية اتهما فيها بعضهما بعضاً بالاعتداء، والتدخل في أمور الواحة. ترأس اللورد كيرزون اجتماعات هذا المؤتمر، وعلى الرغم من أن كيرزون هو من رجالات حكومة الهند، إلا أن مسؤولي وزارة الخارجية -والتي انعقد المؤتمر في رحابها- كانوا واقعين تحت تأثير تقارير لورانس التي تتحدث في حماس عن مدى فاعلية جيش الشريف حسين، ولم يكن غريباً إذن أن قرر المؤتمرون أن واحة الخرمة تابعة للشريف، لا لأسباب تاريخية ولكن لاعتقادهم الراسخ بأن النصر سيكون حليف الشريف في أي مواجهة حربية قد تحدث حول الخرمة، وعليه، وتأكيداً لحقه في الواحة، أرسل الشريف حسين ابنه عبد الله على رأس قوة عسكرية إلى الخرمة ولم يكن بإمكان ابن سعود- والأمور على ما هي عليه- التخلي عن وعده المقطوع

لأهل الخرمة بحمايتهم والوقوف إلى جانبهم- فأطلق لقوات الإخوان العنان، وأمرهم بالهجوم على جيش الشريف، ففعلوا، وكادوا أن يفنوه عن آخره. ونجا عبد الله بن الشريف حسين وقلة من أنصاره، بعد أن فروا من أرض المعركة بجلودهم- وثارت ثائرة وزارة الخارجية البريطانية، فأبرقت إلى الممثل البريطاني في العراق، والذي كان منوطاً به دفع المعونة الشهرية لابن سعود، بإيقاف الدفع فوراً، ولكن الممثل وضع البرقية في جيبه، ولم يفعل ما أمر به، في انتظار أن يهدأ غضب الوزارة.

كان انتصار ابن سعود في الخرمة برهاناً ساطعاً على مدى فاعلية قوات الإخوان، وعلى مدى خطورتهم أيضاً، فقد برهنوا على أنهم كانوا تواقين، سباقين للاستشهاد، والموت في سبيل مبادئهم. وكان شعارهم الشهادة أو النصر. وقد أدرك ابن سعود أن عليه في تلك اللحظات تحويل هذا الحماس الإخواني الدافق عن الخرمة، وعن الشريف حسين إلى عدوه اللدود القابع في حائل، ابن رشيد: والذي لم يكن محمياً من بريطانيا، أو متحالفاً معها، كما هو حال الشريف حسين، مضافاً إلى ذلك فقد كان بيت آل رشيد يعج بالمنازعات والاغتيالات حول كرسي الحكم، فمثلاً في عام ١٩٢٠ اغتيل الحاكم الرشيدي - اغتاله ابن عمه[١]- ثم قتل حراس الحاكم القتيل، ابن العم القاتل، وتلا ذلك تولي شاب رشيدي صغير لم يتجاوز عمره الثماني عشرة سنة الحكم في حائل- ولم يكن مثل هذا النزاع، وهذا العنف بالأمر الغريب في حائل، فخلال

(١) يشير المؤلف هنا إلى ذلك الحادث الذي تم فيه قيام عبدالله بن طلال بن نايف بن طلال بقتل سعود بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله، ثم قتل عبده، إلى أن تم الإمساك به وإقامة حد القصاص فيه عام ١٣٣٨هـ، ثم تولى بعد ذلك عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز بن متعب الذي وصف بالشاب الصغير.

القرن الماضي، مات اثنان فقط من حكام حائل موتاً طبيعياً، وانتحر آخر، ومات ثالث في معركة مع ابن سعود، أما البقية الباقية- وهم حوالي اثني عشر حاكماً - فقد ماتوا جميعاً مقتولين بأيدي أقربائهم- أما الآن وقد اعتلى العرش شاب يافع في حائل، فقد انقسم ولاء الناس فيها، وكان واضحاً أنهم على استعداد لتقبل حاكم جديد يوحد صفوفهم، ويقضي على الانقسامات التي كانت مستعرة بينهم[1].

عشرون عاماً كانت قد مضت على آخر قتال دار بين ابن سعود، وحاكم من آل رشيد[2]، وفي كل هذه الفترة لم يقدر لابن سعود الوصول إلى أبواب حائل إلا مرة واحدة، ولكنه حتى في هذه المرة صد عنها، أما الآن فإن النزاع الدائر فيها هو الذي سيجعلها تسقط له بسهولة ويسر، وعليه فقد بدأ ابن سعود تقدمه في أراضي آل رشيد، فثارت بعض قبائل تلك المنطقة، وانضمت إليه- وثارت قبائل لتستقل بنفسها، واضطر الحاكم اليافع في حائل إلى إطلاق ابن عمه الذي كان سجيناً بسبب دوره في اغتيال الحاكم الرشيدي الأخير، ولكن هذا الذي أطلق انقلب على الحاكم الصغير، الذي فر إلى معسكر ابن سعود طالباً الحماية والمساعدة، أما ابن العم فقد كون جيشاً ودخل في حرب مع ابن سعود، حرب لم تسفر عن شيء، اللهم إلا تراجعه واحتمائه بأسوار حائل، ومن ثم قام ابن سعود بحصار حائل، وهدد بأنه سيستعمل المدافع التي كان قد غنمها من الجيش التركي ضد أسوارها- ولكن

(١) للمزيد في التعرف على مصير هؤلاء الحكام من آل رشيد، انظر: الريحاني، تاريخ نجد، ص٢٩٦.

(٢) الصحيح أن آخر قتال كان في معركة جراب عام ١٣٣٣هـ، الموافق ١٩١٥م، وكان حاكم حائل سعود بن رشيد، أي قبل خمس سنوات،كما ذكر المؤلف.

ذلك كان مجرد تهديد، إن ابن سعود لم يكن يود قصف المدينة بالمدافع، لأنه كان موقناً أنها ساقطة له لا محالة، وهو لا يريد إيذاء أهلها والذين سيصبحون عما قريب من ضمن رعاياه. واستطاع في النهاية دخولها، بعد أن أغرى بالمال أحد حراس بواباتها، ففتحها لهم. ولكن ظل حاكمها معتصماً بقلعتها لفترة شهر آخر، استسلم بعده - منهياً بذلك حرباً استمرت بين آل رشيد وابن سعود مدة عشرين عاماً.

كان ابن سعود شهماً كريماً ساعة انتصاره، فمنع جنوده من نهب المدينة، ووزع قوتهم على أهل المدينة الجياع، وأخذ معه إلى الرياض كل أفراد عائلة آل رشيد، حيث عاشوا في قصوره ضيوفاً عليه، كما استوعب ضباط الجيش الرشيدي في قواته، وتزوج أرملة غريمه القتيل، وعامل أطفال العائلة اليتامى كأنهم أطفاله، وهكذا أصبحت كل منطقة أواسط الجزيرة العربية ملكاً له. وبعد ذلك، وفي اجتماع سري بسيط حضره الشيوخ، والعلماء - ترأسه والده الإمام، أُعلنَ ابن سعود سلطاناً- وكان هذا أول لقب رسمي له[1].

(١) تلقب الملك عبدالعزيز بعدد من الألقاب كان أشهرها: الإمام، إلا أن تلك الألقاب كانت بناءً على التطورات السياسية التي مرت بها الدولة، ففي البداية كان يعرف بأمير نجد ورئيس عشائرها عام ١٣١٩هـ، ثم سلطان نجد وملحقاتها عام ١٣٣٩هـ، ثم ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها عام ١٣٤٤هـ، ثم ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عام ١٣٤٥هـ، وأخيراً ملك المملكة العربية السعودية عام ١٣٥١هـ. كما عرف عند البريطانيين بالسير عبدالعزيز وذلك بعد تقليده لقب سير عند اجتماعه معهم في البصرة، إلا أنه لم يتلقب به -رحمه الله تعالى-.